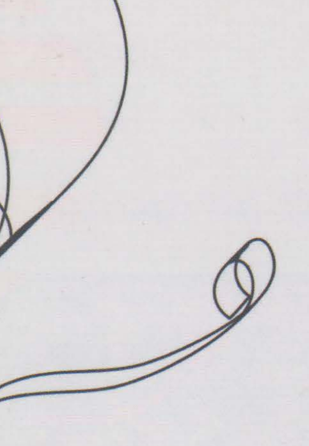






شخصية الرسول

في كتاب (عبقرية محمد) للعقاد

علي المحرقي





علي المحرقي

هوية الكتاب

العنوان : شخصية الرسول ﷺ في كتاب (عبقرية محمد) للعقاد

إصدار : جمعية التوعية الإسلامية

تأليف : علي المحرقي

المراجعة والتدقيق : لجنة المراجعة والتدقيق بجمعية التوعية الإسلامية

تصميم وإخراج : أحمد الزاكي

سنة الطبع : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الطبعة : الأولى


بسم الله الرحمن الرحیم

فهرسة

مقدمة الكتاب

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

(شخصية الرسول في كتاب عبقرية محمد للعقاد) هو أحد مخرجات مهرجان رسول الرحمة الذي تناول جوانب علمية وفنية مختلفة تتخذ من شخصية الرسول الأعظم ﷺ وآثاره مصدرًا للدراسة والإبداع.

وتشكل دراسة الأستاذ علي المحرقي إحدى الدراسات النقدية الجادة التي تناولت الصورة التي سعى (العقاد) برسمها عن شخصية الرسول الأكرم ﷺ باعتباره عبقرياً من عباقرة الأرض.

وقد تمكّن الكاتب أن يقرأ للعقاد باحتياطٍ وحذر، وأن يضع إصبعه على مواطن الخلاف في فرضية البحث التي انطلق منها (العقاد)، والتي زعم فيها بإمكانية دراسة شخصية الرسول الأعظم محمد ﷺ بمعزل عن رسالته السماوية، والتي أفضت إلى نتائج حاكمها الكاتب بجدارة، ووضع أمامها استفهامات ومناقشات جريئة.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن نكون قد وُفّقنا في تقديم هذا النتاج المتميز إلى أبناء هذه الأمة.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

مهرجان رسول الرحمة
جمعية التوعية الإسلامية

تمهيد

سنحاول من خلال البحث أن نتعرف على سمات شخصية النبي محمد ﷺ حسبما جاءت في كتاب (عبقرية محمد) للكاتب والمفكر المصري المعروف عباس محمود العقاد، ومن ثم تسليط الضوء على كل ما واجهته هذه الصورة المرسومة من نقد أو تأييد، من حيث المنهجية والنتائج معًا.

التعريف بالكاتب

في مدينة أسوان بصعيد مصر، وُلِدَ عباس محمود العقاد في يوم الجمعة الموافق (٢٩ من شوال ١٣٠٦هـ - ٢٨ من يونيو ١٨٨٩م)، ونشأ في أسرة كريمة.

ومدينة أسوان هي مدينة سياحية عرفت بآثارها العريقة ما مكّن العقّاد من أن ينشأ حيث يلتقي الماضي السحيق بالحاضر العريض، مما جعل لديه بسطةً في الأفق وطبّعهُ على الاستعداد للتقابل مع الثقافات المختلفة . مما يجدر ذكرهُ أنهُ ذو أصول كردية.

تعليمه:

تلقَّى تعليمه الابتدائي بمدرسة أسوان الأميرية، وحصل منها على الشهادة الابتدائية سنة ١٣٢١هـ - ١٩٠٣م وهو في الرابعة عشرة من عمره، وفى أثناء دراسته كان يتردد مع أبيه على مجلس الشيخ أحمد الجداوى - وهو من علماء الأزهر الذين لزموا جمال الدين الأفغاني - وكان مجلسه مجلس أدب وعلم، فأحبَّ القراءة والاطلاع، وكان مما قرأه في هذه الفترة (المُسْتَطْرَف في كل فن مستظرف) للأبشيهي، و(قصص ألف ليلة وليلة)، وديوان البهاء زهير وغيرها، وكان بعد التحاقه بالمدرسة الابتدائية قد كتب موضوعًا عن الحرب والسلام، واستمع إلى هذا الموضوع الإمام محمد عبده، وقد ناقش العقاد فيه.

لم يتجاوز – في التعليم النظامي – أكثر من الشهادة الابتدائية لعدم توفر المدارس الحديثة في مدينته البعيدة عن الحواضر المصرية الكبرى، ولأن أسرته

عجزت عن إرساله إلى القاهرة لمواصلة تعليمه، كما كان يفعل الكثيرون في بدايات القرن العشرين، لكن هذا الانقطاع عن التعليم المنتظم لم يقف حاجزًا بين العقاد والمعرفة الحديثة؛ إذ أهله ذكاؤه الحاد وصبرُه ومثابرته لاكتساب ثقافة موسوعية مثيرة للدهشة والإعجاب.

ولاشك أن إتقانه للإنجليزية – التي اكتسبها من مخالطة السياح - مكنه من الاطلاع على المعرفة الغربية الحديثة من مصادرها الأصلية.

محطّات :

عمل موظفًا في الحكومة بمدينة قنا سنة ١٩٠٥م، ثم نُقِلَ إلى الزقازيق سنة ١٩٠٧م، وعمل في القسم المالي بمديرية الشرقية، وفي هذه السنة توفي أبوه، فانتقل إلى القاهرة واستقر بها.

ضاق العقاد بحياة الوظيفة وقيودها، فلجأ إلى الكتابة الصحفية، وكان أول اتصاله بها في سنة ١٩٠٧م حين عمل مع العلامة محمد فريد وجدي في جريدة الدستور اليومية التي كان يصدرها، وتحمل معه أعباء التحرير والترجمة والتصحيح من العدد الأول حتى العدد الأخير، وكان إصدار هذه الصحيفة فرصة، لكي يتعرف العقاد بسعد زغلول ويؤمن بمبادئه، حيث لم يمضِ على عمله في الصحافة حتى أصبح أول صحافي يجري حوارًا مع وزير، وعندما هو الزعيم الوطني سعد زغلول، وزير المعارف في ذلك الوقت - توقفت الصحيفة عن النشر، وهو ماجعل العقاد يبحث عن عمل يقتات منه، فاضطر إلى إعطاء بعض الدروس؛ ليحصل على قوت يومه، وكان أيضًا يكتب المقالات ويرسلها إلى مجلة (فصول)، كما كان يترجم لها بعض الموضوعات، ولكنه لم يتمكن من مجابهة الأعباء المادية، فاضطر إلى السفر عائدًا إلى أسوان، حيث ألف كتاب (خلاصة اليومية)، واستقر في أسوان سنتين، وعانى في هذه الفترة من آلام المرض، وضيق اليد.

عاد سنة١٩١٢م إلى الوظيفة بديوان الأوقاف، لكنه ضاق بها، فتركها، واشترك في تحرير جريدة المؤيد التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف، وسرعان ما اصطدم العقّاد بسياسة الجريدة، التي كانت تؤيد الخديوي عباس حلمي، فتركها، وعمل بالتدريس فترة مع الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني.

عاد إلى الاشتغال بالصحافة في جريدة الأهالي سنة ١٩١٧م، وكانت تَصْدُر بالإسكندرية.

تركها وعمل بجريدة الأهرام سنة ١٩١٩م، واشتغل بالحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١٩م، وصار من كُتَّابها الكبار مدافعًا عن حقوق الوطن في الحرية والاستقلال، وأصبح الكاتب الأول لحزب الوفد، المدافع عنه أمام خصومه من الأحزاب الأخرى، ودخل في معارك حامية مع منتقدي سعد زغلول زعيم الأمَّة حول سياسة المفاوضات مع الإنجليز بعد الثورة، انتقل للعمل مع عبد القادر حمزة سنة ١٩٢٣م في جريدة البلاغ، وارتبط اسمه بتلك الجريدة، وملحقها الأدبي الأسبوعي لسنوات طويلة، ولمع اسمه، وذاع صيته، وانْتخب عضوا بمجلس النواب.

سُجنَ العقاد لمدة تسعة أشهر سنة ١٩٣٠م بتهمة العيب في الذات الملكية، وحكاية ذلك أن الملك فؤاد أرادَ إسقاط عبارتين من الدستور، تنص إحداهما على أن الأمَّة مصدر السَّلطات، والأخرى أن الوزارة مسؤولة أمام البرلمان، فارتفع صوت العقاد من تحت قبة البرلمان على رؤوس الأشهاد من أعضائه قائلا: (إن الأمَّة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور، ولا يصونه).
ظل العقاد منتميًا لحزب الوفد حتى اصطدم بسياسته تحت زعامة مصطفى النحاس باشا في سنة ١٩٣٥م، فخرج على الحزب في العام نفسه، ووجه انتقاده له، وأصبح في جانب الملك ضد الوفد، وانتقد معاهدة ١٩٣٦م.

تقوم الحرب العالمية الثانية، ويقف الأديب موقفًا معاديًا للنازية جلب له المتاعب، وأعلنت أبواق الدعاية النازية اسمه بين المطلوبين للعقاب.

وما إن اجتاحت جنود روميل الصحراء، واقتربت من أرض مصر حتى تخوف العقاد لما لمقالاته النارية من، وقع على النازية تلك المقالات التي جمعها بعد ذلك في كتابين هما (هتلر في الميزان)، و(النازية، والأديان السماوية)، فآثر العقاد السلامة، وسافر عام ١٩٤٣م إلى السودان حيث احتفى به أدباء السودان حفاوة بالغة.

عمل في (أخبار اليوم) ١٩٤٤م، ثم في (الأساس)، واختير عضوًا في مجلس الشيوخ، ثم انسحب من العمل السياسي، وبدأ نشاطُه الصحفي يقل بالتدريج، وينتقل إلى مجال التأليف، وإن كانت مساهماته بالمقالات لم تنقطع إلى الصحف، فشارك في تحرير مجلة الأزهر، وصحف روز اليوسف، والهلال، وأخبار اليوم التي داوم على الكتابة فيها منذ ١٩٥٣م حتى وفاته.

خاض العقاد العديد من المعارك الفكرية، وقد أسس بالتعاون مع إبراهيم المازني، وعبد الرحمن شكري (مدرسة الديوان)، وكانت هذه المدرسة من أنصار التجديد في الشعر، والخروج به عن القالب التقليدي العتيق، وكانت له ندوة أسبوعية تعقد في صالون منزله يرتادها كبار الأدباء، والمفكرين.

وفاتُه:

وقف العقاد حياته كلها على خدمة الفكر، والأدب حتى لقي اللّه في (٢٦ من شوال ١٣٨٣هـ - ١٢ من مارس ١٩٦٤م).

كتاب (عبقرية محمد):

صدر كتاب عبقرية محمد عام ١٩٤٢م، وهو الكتاب الأول من كتب العقاد التي دارت حول سلسلة العبقريات، وعظماء الإسلام، ومن الممكن أن نذكر البقية من حيث الظهور كالتالي:

- عبقرية عمر ١٩٤٢
- عبقرية الصديق ١٩٤٣

- عبقرية الإمام علي بن أبي طالب ١٩٤٣
- الصديقة بنت الصديق عائشة ١٩٤٣
- عمر بن العاص ١٩٤٤
- أبو الشهداء الحسين بن علي ١٩٤٥
- داعي السماء بلال بن رباح ١٩٤٥
- عبقرية خالد ١٩٤٥
- عبقرية المسيح ١٩٥٣
- فاطمة الزهراء، والفاطميون ١٩٥٤
- ذو النورين عثمان بن عفان ١٩٥٤

وما بينهم كتب كثيرة صدرت للعقاد طوال مشواره الفكري، والعلمي، وقد دارت حول مختلف موضوعات الفكر، والأدب، والدين.

كتاب (عبقرية محمد) تتضح وجهته، والغاية التي انطلق من ورائها كاتبه من خلال المقدمة التي كتبها العقاد لكتابه، والتي من خلالها سنشرع في نقد تلك الوجهة، وتلك الغاية المبتغاة من ذلك الكتاب، حيث يشير العقاد في تلك المقدمة إلى أنه سيحاول في كتابه هذا أن يجرد النبي ﷺ من صفة الرسالة، والنبوة، وسيعرض النبي ﷺ للقارئ بصفته البشرية التي تقوم على العظمة، والعبقرية، والنبوغ المبهر، والمَلَكَات التي تتفوق على الجميع بحيث لو أن هذا الإنسان المجرد من النبوة، والرسالة، والوحي قرأه الغربي، واللاديني، والمسيحي، وغير المسلم لآمن بعظمته، وتوقف عن شتمه، أو إلصاق ما لا يليق به من صفات، وكان يرى بأن كل العوامل المحيطة بالنبي، وكل المؤشرات تنبئ بأنه سيكون عظيمًا بعيدًا عن الوحي، والرعاية السماوية. هذا هو المحور الذي يدور حوله الكتاب كله.. يقول العقاد في مقدمة الكتاب: «فسيرى القارئ بأن (عبقرية محمد) عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة، ولا يتعداها، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تُضاف إلى السير العربية، والإفرنجية التي حفلت بها (المكتبة المحمدية) حتى الآن ... لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات، على اعتقادنا

أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع، ثم لا يُقال: إنه استنفد كل الاستنفاد.

وليس الكتاب شرحًا للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعًا عنه، أو مجادلة لخصومه... فهذه أغراض مستوفاة في مواطنَ شتى، يكتب فيها من هم ذووها، ولهم دراية بها، وقدرة عليها.

إنما الكتاب تقدير (لعبقرية محمد) بالمقدار الذي يدين به كل إنسان، ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذي يثبت له الحب في قلب كل إنسان، وليس في قلب كل مسلم وكفى.

فمحمد هنا عظيم؛ لأنه قدوة المقتدين في المناقب التي يتمناها المخلصون لجميع الناس، عظيمٌ لأنه على خلق عظيم، وإيتاء العظمة حقها لازمٌ في كل آونة، وبين كل قبيل، ولكنّه في هذا الزمن، وفي عالمنا هذا ألزم منه في أزمنة أخرى، لسببين متقاربين لا لسبب واحد، أحدهما: أن العالم اليوم أحوج مما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم، وللشعوب كافة.. ولن يتاح لمصلح أن يهدي قومه وهو مغموط الحق، معرّض للجفوة، والكنود. والسبب الآخر: إن الناس قد اجترأوا على العظمة في زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها، فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسًا من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز، وتظلمهم المساواة، والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في العصر الحديث..).[1]

إذًا العقاد يتطلع في كتابه هذا أن يرسم صورة للنبي ﷺ يجرده فيها من الرسالة، ويضفي عليه من خلالها كل الصفات العليا، والسمات الإنسانية الباسقة بحيث يحبه كل من يقرأه، أو يجده أمامه، أو يعاشره حتى لو لم يكن رسولًا مرسلًا من السماء، وفي سبيل هذه الغاية نجد العقاد كثيرًا ما يذكر اسم النبي ﷺ في صفحات كتابه مجردا من الصلاة أو التسليم، وكثيرا ما يكتب

(١) ص: ٦ طبعة نهضة مصر - القاهرة ١٩٩٩.

(قال محمدٌ)، وذكر محمدٌ هكذا، فهو يكتب: (وهكذا تجلّت عبقرية محمد في سياسة الأمور كما تجلت في قيادة الجيوش)[٦١]، (فمحمد العربي القرشي)[٧١]، (من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق)[٨٧].

هذه الغاية التي ابتغاها العقاد، وكتب كتابه من أجلها تنبَّه لها القراء، والأدباء، والمفكرون على مختلف توجهاتهم الفكرية منذ البداية، فقد لوحظ بأن العقاد يرسم شخصية للرسول خلاف الشخصية المرسومة في كُتُب السير، والتراجم، والأحاديث من حيث الاستنتاج، والعبارات، ومن حيث تفسير الأحداث التي صاحبت النبي ﷺ في مسيرته الرسالية، فكل شيء يحاول العقاد أن يرسم له صورة بعيدة عن الوحي، والسماء، معتمدًا في تفسيره لها على عبقرية النبي ﷺ، وذكائه الخارق، ونبوغه المميز، كل ذلك من أجل أن يظهر النبي ﷺ بشخصية الإنسان النابغة، والعبقري حتى لو لم يكن نبيًّا.

(العقّادُ لا يعرف ملَك الوحي الروح الأمين جبريلَ عليه السلام، ولا يعرف توجيه السماء للنبي ﷺ، وإنما عنده أن النبي ﷺ كان يفعل كل ذلك من تلقاء نفسه، بما أوتي من حاسة (الوعي الكوني) التي جعلته يفهم عن الله دون واسطة!!

يقول: (هذا الإلهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو الذي أوحى إلى الرسول الأمّي قبل كشف الجراثيم، وقبل تأسيس الحَجْر الصحي بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضي في مسائل الصحة، واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأتِ العلم بعده بمزيد حيث قال: (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)، وعندنا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى • إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى • عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى • ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى • وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾.[٢]

عند العقّاد أن النبي ﷺ عبقري من العباقرة، ولذا تراه يقارن بينه وبين العباقرة في زمانه، فكما أن نابليون عبقريٌّ فكذا كان محمدٌ ﷺ، فكلاهما

---

(٢) النجم: ٣-٤.

يفاجئ عدوَّه، وكلاهما يعطي اهتمامًا للقوة المعنوية، وكلاهما يتّجه للقضاء على القوة المالية، وكلاهما يهتم بالجيش ولا يُشغِل باله بالمدن إلا قليلا ، وكلاهما كان يشاور أصحابه، وكلاهما كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال، وكلاهما كان يعرف قيمة الدعوة، والبيان، وكلاهما حاول أن يغتال معارضيه من أصحاب الأقلام. ثم يفضِّل النبيَّ إذ كانت عبقريتُه أقوى!! وراح يقارن بين الرسول ﷺ وبين غيره من (عباقرة) الحروب في العصر الحديث، فهو ﷺ قد عَرف سياسة الأوامر المغلقة، ويضرب مثلا بـ (سرية عبد الله بن جحش) إلى بطن نخلة، وكتمان الخبر على من حوله من أصحاب رسول الله ﷺ. بل والنبي ﷺ (عبقري) كغاندي الهندي عابد البقرة!! فإنْ كان غاندي الهندي عابدُ البقرة قد استعمل المقاومة السلبية المخزية فإن النبي ﷺ كما يقول العقاد ـ استعملها يوم الحديبية.!! ولا أدري أي سلبية كانت يوم الحديبية؟!! أي سلبية وقد خرج يريد بلد عدوه وقد وتَرَهُمْ في سادتهم، وأشرافهم؟!! حتى ظن المنافقون (وهم يومها كالعقلانيين اليوم) أن لن ينقلب الرسول، والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا؟! أيُّ سلبية كانت، وقد بايع أصحابَه تحت الشجرة على الموت؟!! أيُّ سلبيَّة وهو يشرط لنفسه أن يعود إليهم بعد عام ويقيم بديارهم ثلاثة أيام، وقد عاد، وأقام بدارهم ونكح من نساءهم؟!! أيُّ سلبية وقد استغلَّ الصلح للتفرغ لمن حوله من اليهود، والأعراب، بل والخروج للروم ذات القرون وقد تترست بمئات الألوف من العرب، والعجم؟ أي سلبيه وهو الذي دعا الدنيا كلها لما هو عليه، ولم يكن يعني هذا سوى إعلان الحرب على الدنيا كلها يومها، وأصحابه حين يصطفون للقتال بضعة مئات؟!! يحسب العقاد أن استجابة النبي ﷺ لشروط قريش والرجوع من أمامهم يوم الحديبية نوعًا من السلبية في المقاومة.. كأنّه رضي بالهزيمة استجاشة لعطف الكافرين من قريش أو مَن يسمع برجوع المسلمين من الحديبية وقد خرجوا آمِّين البيت الحرام، وهذا خطأ محض. كانت الحديبية كلها بتدبير الله عز وجل)[٣]

ولا يخفى لكل متابع لكتابات العقاد، وقارئ جيد لفكره مدى تأثره بالأدب

---

(٣) محمد جلال القصاص، عبقريات عباس العقاد إنكار للوحي، (النت).

الغربي، وعلى الأخص الفكر الإنكليزي، وقد أشار أغلب الباحثين إلى تأثره الكبير بالفيلسوف توماس كارليل الذي كان يؤمن بالفردية، وبالبطولة ومنه أخذ فكرة العبقرية، وسحبها على النبي وصحبه.

كان كتاب (كارليل) المدخل الذي قاد العقاد إلى كتابة (عبقرية محمد)، فقد تساءل هو، وثُلةٌ من أصدقائه بمن فيهم المازني: (ما بالنا نقنع بتمجيد (كارليل) للنبي، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه)، وسأله بعضهم أن يؤلف كتابا عن رسول الإسلام (على النمط الحديث). فوعدهم بأن يكون ذلك قريبًا.

وتوماس كارليل (٤ ديسمبر ١٧٩٥ - ٥ فبراير ١٨٨١) كاتب اسكتلندي، وناقد ساخر، ومؤرخ. وكان لأعماله تأثيرٌ كبير بالعصر الفكتوري، وهو من عائلة (كالفينية) صارمة أمَلَت أن يصبح واعظًا إلا أنه فقد إيمانه بالمسيحية أثناء دراسته بجامعة إدنبرة، ومع ذلك بقيت القيم الكالفينية تلازمه طوال حياته. جعلَ تآلُفُ المسحة الدينية مع فقدان الإيمان بالمسيحية التقليدية أعمالَ كارليل تبدو جذابة لعديد من الفكتوريين المناهضين للتغيرات السياسية، والعلمية التي هددت حسبهم نظام الحياة الاجتماعي.

أما كتابه الأبطال وعبادتهم فهو دراسة أدبية وتاريخية للبطولة، اختار كارليل لعرْضها وتحليلها أرقى النماذج الإنسانية: البطل معبودًا في شخص (أدوْن) المعبود الاسكنديناڤي الأسطوري، والبطل نبيًا في شخص النبي محمد ﷺ، والبطل شاعرًا في شخص دانتي وشكسبير، والبطل راهبًا في شخص مارتن لوثر زعيم الإصلاح الديني وجون نوكس زعيم المطهرين، والبطل كاتبًا وأديبًا في شخص جونسون وروسو وبرنز، والبطل ملكًا وحاكمًا في شخص كرومويل ونابليون الذي كان معاصرًا لكارليل.

ويبدو من هذا العرض السريع لكتاب الأبطال وعبادتهم أن كارليل لم يستطع أن يختار بطلًا واحدًا في مجال واحد، فقسم البطولة في ذلك المجال بين

شخصين أو أكثر، باستثناء البطل إلهًا أسطوريًا أودن والبطل نبيًا محمد ﷺ.

يقول كارليل في النبي ﷺ: (زعم المتعصبون أن محمدًا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وأيم الله! لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات، المتورِّد المُقْلتين، العظيم النفس المملوء رحمةً وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمةً وحجى وإربةً ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه، وكيف لا وتلك نفس صافية ورَجُل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين). (واللهِ إني لأحبُّ محمدًا لبراءة طبعه من الرياء والتصنُّع). (إنّما محمدٌ شهابٌ قد أضاء العالم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

كارليل نفسه ومن خلال كتابه حول النبي ﷺ لم يكن ينظر للرسول على أنّه رسولٌ مبعوث من السماء، ولم يكن يوعِز عظمته إلى رعاية الله، ولا إلى النبوة أو الرسالة وإنما كان ينظُر له كأي بطل من أبطال التاريخ الذين استطاعوا من خلال نبوغهم وسياستهم النفسية وملكاتهم المتفجرة وطاقاتهم الجبارة التأثير في المجتمع وتغيير التاريخ، وهي النظرة ذاتها التي أخذ بها العقاد في رؤيتِه للنبي ﷺ والتي تظهر بجلاء في كتابه (عبقرية محمد) فشخصية الرسول إنّما هي عبقريّة راسخة ونبوغ إنساني لا نظير له، وهو السر الكامن وراء تأثيره وانقياد المسلمين وغير المسلمين لشخصيته الجاذبة!

يقول كارليل: (وظني أنه لو كان أتيح لهم (للمسلمين) بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدارَ ما ناله محمد في ثوبه المرقع، فكذلك تكون العظمة، وهكذا تكون الأبطال)[٤].

لاحظ هنا كيف يعبر كارليل عن النبي ﷺ فهو في نظره لا يخرج عن كونه بطلًا من أبطال التاريخ، بل أعظم الأبطال على الإطلاق، إذ استطاع من خلال تلك الشخصية المعدمة والبسيطة أن يجعل العرب والعالم فيما بعد يذعن له

---

(٤) كتاب (الأبطال) ص:١٠١ نقلا عن (الرسول في كتابات المستشرقين) نذير حمدان.

وينقاد بكل أريحية، مع فقدانه لكل ما لدى القياصرة والملوك. وهذا ما يحاول أن يرسمه العقاد في كتابه، ويحاول جاهدا أن ينقل تلك الصورة لشخصية النبي ﷺ إلى القارئ الغربي، وإلى الثقافات غير الإسلامية، فالنبي دون النبوة هو هو، ومحمد ﷺ من غير الرسول سيكون هو الشخص المغيِّر والقائد النابغة، والفرد البطل الذي يستحق منا كل التبجيل والاحترام والحب والرغبة في الانقياد له بكل أريحية، فهو عبقري في السياسة والمجتمع والثقافة واللغة والنفس والحرب والسلام وفي كل المجالات الإنسانية والثقافات المتعددة.

المستشرقون وعبقرية النبي ﷺ:

من خلال التتبع لكتابات المستشرقين الذين تناولوا سيرة النبي ﷺ نجد أن مفردة العبقرية التي التصقت بالنبي ﷺ في كتاب العقاد كانت حاضرة في كتاباتهم، مما يؤكد تأثر العقاد بالفكر الغربي في رسم شخصية الرسول ﷺ، تلك الشخصية التي يحاول إبعادها عن النبوة وإلحاقها بشخصيات العباقرة والأبطال التاريخيين، والنوابغ من البشر. وقد التقط العقاد تلك المفردة وألصقها بشخصية الرسول ﷺ دون أن يجد تمايزًا بين النبوة والعبقرية. وسوف نعرض للقارئ مجموعة من النصوص التي ترجع للمستشرقين والتي من خلالها يتم تصوير شخصية الرسول ﷺ بصورة العبقري لا النبي، وشخصية الفرد البطل النابغة صاحب المواهب الإنسانية العالية لا شخصية الرسول المبعوث من السماء، والذي ترعاه النظرة الإلهية وتحرسه وتعينه في كل خطواته، وليس كما نعتقد نحن: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(٥)، وأن النبي ﷺ لا ينبغي أن نصور شخصيته بعيدا عن النبوة، فهو ليس نابغةً ولا أديبًا ولا مفكرًا ولا شاعرًا ولا فيلسوفًا ولا عبقريًا من العباقرة كما يحاول أن يثبت العقاد ذلك كلَّه في كتابه، بل النبي ما هو إلا رسول صادق مرسل من الله تبارك وتعالى، ومدعوم بالمعجزة دليلا على صدق نبوته وتحديا لقومه، وأن كلَّ ما يظهر عليه من مخايل

---

(٥) الأنفال: ١٧

الذكاء والنبوغ والتميز ما هو إلا من مستلزمات وتبعات النبوة والرسالة، لا من نتاج العبقرية والذكاء المستقل عن النبوة والرسالة، فلو لم يكن محمد رسولاً لما كان يحمل كل تلك المؤهلات والخصائص الإنسانية المتفردة في شخصيته والتي أبهرت العالم أجمع، وأبهرت العقاد مما جعله يحاول أن ينقلها للغرب مستقلة عن الرسالة والنبوة، وهذا منزلق خطير، وغاية لا تنسجم مع الفكر الإسلامي الأصيل، وهذا هو مسلك وديدن المستشرقين، حتى المبهورين والمعجبين بالنبي ﷺ.

وفي هذا الصدد نجد الأستاذ والمفكر الإسلامي أنور الجندي (١٩١٧-٢٠٠٢م) يذهب إلى أبعد من هذا، حيث يرى أن العقاد في تفكيره ونظرته للدين وما يتعلق به لا يختلف عن المفكرين العلمانيين، وهو أقرب ما يكون لمفهوم الغربيين، مفهوم مادي لا روحي، لا يعترف بالغيب ولا النبوة... وهو في رأينا شطط وغلو وقسوة من الأستاذ أنور الجندي في نظرته وتقييمه للعقاد من خلال رسمه لشخصية الرسول ﷺ في كتابه (عبقرية محمد) يقول الجندي داعما رأيه في العقاد برأيٍ للمفكر محمد الغمراوي في ثنايا حديثه:

(وكانت هذه الكتابات من العصريين أشبه ما تكون بتقديم صورة إسلامية برّاقة من خلال مفهوم الدين كما يفهمه الغربيون: نظاما لاهوتيًا يتعلّق بالعبادات وحدها لحجب المفهوم الأصيل.

ولم يكن هؤلاء الكتّاب في حقيقة أمرهم ملتزمين بتطبيق الإسلام على أنفسهم أو في حياتهم الخاصة فكانوا يتحدثون عن الإسلام كعلمانيين، وما زالوا يدرسون الإسلام والسيرة من خلال مناهج الغرب المادية، التي لا تعترف بالروح أو الغيب أو النبوة أو الجزاء الأخروي. ومن هنا فإن كثيرًا من المناهج والوسائط التي استعملها العقاد، وغيره في تفسير التاريخ الإسلامي أو السيرة النبوية كانت ثمرة مناهج مادية عاجزة عن استيعاب حقائق الإسلام أو تفسير قدرته الخارقة في السيطرة على العالم في أقل من ثمانين عامًا.

ومن هنا كانت أخطاء الأستاذ العقاد في وصف النبي محمد ﷺ بالعبقرية التي جعلها ظاهرة عامة تنطبق على العظماء مما يوحي بعجزه عن القدرة في التفريق بين النبوة والبطولة.

وكذلك كانت أخطاؤه في كتاب (الله) حيث اعتمد نظرياتٍ مسيحية، وغربية دون أن يصل إلى مفهوم الألوهية الصحيح الذي تمتلئ به كتب التوحيد، مما حمل الإمام حسن البنا في ذلك الوقت أن يكتب في مجلّة (الشباب) فصولاً عن الألوهية من خلال مفهوم الإسلام الصحيح. وهكذا كان عجز العقاد عن الخروج من دائرة النظريات الغربية في دراساته الإسلامية عاملا من العوامل التي جعلته يتعثر في مواضيع كثيرة، حتى يقول العلاّمة محمد أحمد الغمراوي في التعليق على إسلاميات العقاد: (يجب أن يُقرأ للعقاد باحتياط وهو يكتب عن الإسلام، فالعقاد ابن العصر الحديث أخذ ثقافته مما قرأ لأدبائه وعلمائه وهو شيءٌ كثير وليس كل ما كتبه المستشرقون يقبله المسلم، ولا كل نظريات الغرب متفقٌ وما قرّره القرآن، ولكن العقاد اعتقد من هذه النظريات مما اعتقد، فهو ينظر إلى القرآن من خلال ما اعتقد منها، ويبدو أن من بين ما اعتقده العقاد (نظرية فريزر) في نشوء الأديان، فهي عنده ليست سماوية ولكنها أرضية نشأت بالتطور والترقي إلى الأحسن، ومن هنا تفضيل العقاد للإسلام على غيره من الأديان فهو آخرها فهو إذن خيرها.

ومن هنا يأتي تفسير إطلاق اسمَيْه الغربيين على كتاب (**عبقرية محمد**) و(الفلسفة القرآنية)، فهذه التسمية خطأ منه ينبغي أن يتنبه إليه قارئ الكتاب من المسلمين لينجو ما أمكن مما توحي به التسميات من أن محمدًا ﷺ عبقري من العباقرة، لا نبي ولا رسول بالمعنى الديني المعروف في الأديان المنزلة، ويؤكّد هذا الاتجاه أن جاء الكتاب واحدًا من سلسلة كتب العبقريات الإسلامية ولن يكون أولها، فالناشئ الذي يقرأ بعد عبقرية محمد عبقرية أبي بكر وعبقرية عمر مثلا لا يمكن أن يسلم من إيحاء خفي إلى نفسه من أن محمدا وأبا بكر

وعمر من قبيل واحد، عبقري من عباقرة، وإن يكن أكبرهم جميعا، كالذي سمى النبي ﷺ بطل الأبطال فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور بدلا من صنف اختتم به ﷺ صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله، فالنبي والرسول يأتيه المَلَك من عند الله بما شاء من وحيٍ ومن كتاب ولا كذلك العبقري ولا البطل، فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير، وكم من الصحابة (رضوان الله عليهم) من بطل وعبقري وكلهم يدين له ﷺ بأنه رسول الله إلى الناس كافة في ذلك العصر وما بعده أنه خاتم النبيين)[٦] أ.هـ.

لقد أصاب الغمراوي كبد الحقيقة، واستطاع أن يمسك بالصورة واضحةً حيث أشار إلى أن العقّاد يتعامل مع شخصية الرسول في كتابه بعيدا عن شخصيته الرسالية السماوية، وما هو إلا رجلٌ عبقري ذو قدراتٍ هائلةٍ وجبّارة مثله مثل: أبي بكر الصديق وعمر وعلي عليه السلام !!

هذا المسلك كما ذكرنا سالفا هو عينه مسلك المستشرقين في تعاملهم مع شخصية الرسول ﷺ، حيث يحاولون في أثناء الكتابة عنه سلبه من صفة الرسالة والاقتصار على صفة العبقرية والذكاء والنبوغ غير المعهود، فاللفظة بذاتها استخدمها الفكر الاستشراقي وبقوة وفي أكثر من قلم وعند العديد منهم. يقول زويمر: (وضعت آمنة فتى اسمه محمدٌ)، وبعد مرور قرن واحد من ولادته كان ينادى باسمه وباسم الله الواحد من آلاف المنابر التي تمتد بين أقصى الهند إلى المحيط الأطلسي، وامتد دينه وتبسط في ثلاث قارات، فجرف كلَّ شيءٍ في طريقه، وقضى على ما وجده في سبيله، فما هو السبب في هذا النجاح الفريد؟ إنَّ لكل شيء سببًا ومن المؤكد أنَّ **عبقريّة محمد** هي التي مكنت له هذا النجاح، وهي التي وطدت له ما أراد)[٧].

هنا نصٌّ جليٌّ من أحد المستشرقين البارزين في عالم الاستشراق وهو

---

(٦) قراءة إسلامية لتاريخنا الحديث،ص ١٤٧ دار الاعتصام.

(٧) نقلا عن نذير حمدان، مصدر سابق ص ٥٤.

زويمر، فزويمر يوعز سبب انتشار الإسلام وقوة نفوذه في أقطار العالم كله وذيوع الأذان على المنابر إلى عبقرية النبي ﷺ لا إلى رسالته وتأييد السماء له، وصدّق دعوته وأنه خاتم الأنبياء المسدد من قبل الله تعالى. وهو نفسه منطق العقاد في كتابه، ولا يختلف عنه شيئا، مما يظهر قوة التأثّر بالفكر الغربي لديه، وليست الفكرة نابعةً من ذاته أو منطلقة من بيئته الشرقية الإسلامية كبقية المفكرين الإسلاميين أصحاب الفكر النقي المتشرب بالمصادر الإسلامية الأصيلة.

(المؤرخ (فنلي) حين يوازن بين رجال التاريخ وعباقرة الإنسانية، ويتتبع آثار كل منهم ويلقي الأضواء على مآثرهم، يضع محمدًا (عليه الصلاة والسلام) في موضعه الخاص من العبقرية التي لا يسمو إليها الآخرون. يقول: قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطةً خارقةً على عقول أتباعه وأعمالهم، ووضعت **عبقريته** أساس نظام ديني وسياسي ما يزال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة، وصفات متباينة، وإن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الآسيوية وثبات نظمه مدى أجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي، دليل على أنَّ هذا **الرجل الخارق** قد كونه مزيج نادر من أكبر **العبقريات**)[٨].

النبي محمد ﷺ والمرسل من السماء يصبح لدى هذا المستشرق مجرد رجل خارق وما هو إلا مزيج عالٍ وجبار من العبقريات الإنسانية والتي جاءت وتجمعت في شخصيته، وعبقريته هي التي اختلقت الدين الإسلامي لا الله ولا القرآن ولا السماء، وهذا النظام السياسي الإلهي ما هو إلا من صنع محمد العبقري لا من صنع الله تعالى.. هذا ما يؤكده المؤرخ فنلي في الأسطر السابقة بما لا يقبل التأويل، فشخصية الرسول عند المستشرقين أو بعضهم لا تخرج عن نطاق العبقرية والذكاء الخارق والذهن الإنساني المتوقد الجبار والذي هو أبعد ما يكون عن السماء وإنما هو ملتصق بالأرض ومعطيات الأرض.

أما المستشرق درمنغم فهو لا يشذ عن أقرانه لا في الفكرة ذاتها ولا في الوصف

---

(٨) المصدر نفسه: ٥٤.

نفسه الذي يلصقونه بالرسول ﷺ فالنبي ما هو إلا عبقري من العباقرة أو مجموعة مواهب وقدرات مكنته في الأخير لأن ينشئ هذا الدين الخالد ويسيطر على شبه الجزيرة العربية كلها في غضون سنوات قليلة وتنقاد له العرب قاطبة ويبقى اسمه مدويا إلى اليوم في كل مكان. يقول (درمنغم): (كان ظهوره- أي الرسول- في دورٍ من أشد أدوار التاريخ ظلاما، في دور كانت الحضارات التي قامت في البلدان الممتدة من بلاد الغول الميروفنجية إلى بلاد الهند مضطربة متداعية ... وإن قوة إبداعه، وعبقريته الواسعة، وذكاءه العظيم، وبصره النافذ الحديد، وقدرته على ضبط نفسه، وعزمه المكين، وحذره، وحسن تدبيره، وطراز عيشه، مما يمنع عنه ذلك الموحى إليه الموهوب الجلي مبتلى بالصرع ..)(٩).

المعنى نفسه يتكرر في كل نص، والفكرة تنتقل من واحدٍ لآخر، ومن ثم انتقلت للعقّاد، فالرسول ذكيّ، وبصيرٌ، وحذِرٌ، وعبقري، ويضبطُ نفسه.. هذا فقط هو الذي مكّنه من إقامة الدولة الإسلامية، لا السماء، ولا الوحي، ولا النبوة.

العقاد في كتابِهِ (عبقريّة محمد) يعمل بكل ما أوتي من منطق وذكاء وأدب وفكر أن يرسّخ هذا المعنى في كتابه، فالرسول ﷺ - بعيدا عن الرسالة - هو إنسان ينقاد له كل منصف وعادل لما فيه من صفات النبوغ، والعبقرية، والذكاء، والإنسانية التي تجمعت كلها في شخصيته.

فالرسول عند العقاد سياسي محنّك، وأديبٌ، وعسكري، وإداري من الطراز الأول النادر، وهو بجانب هذا إنسانٌ فاضل، ومتكامل. يحمل كل الصفات الإنسانية التي تبوِّئه المكانة العليا في سلم العباقرة والنوابغ، وهذا ما قاله (توماس كارليل) من قبل، وقد أخذ العقاد منه كلّ ذلك ونقل الصورة كما هي، والشخصية المرسومة للرسول ﷺ ذاتها!!

(وقد أخذ الباحثون الإسلاميون على عبقرية محمد، والعبقرياتِ بصفة عامة عدّةَ أمور (كما أوردها غازي التوبة):

---

(٩) المصدر نفسه : ٥٧.

١. أن العقاد دافع عن منهج العظمة الإنسانية وهي حلقة من دفاعه عن الفرد وإيمانه به ولكنه عجز عن استيعاب الجانب الاجتماعي في الإسلام وشكك في دور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص، إذ ركّز العقاد على العوامل الوراثية والتكوين الجسماني والعصبي ووضع هذه الأسباب في المرتبة الأولى في توجيه الشخصية بحيث تأتي العقيدة الإسلامية والتربية في المرتبة الثانية، والعقاد في موقفه هذا متأثر ببعض المدارس الأوربية في تقديس الفرد والفردية وقد أورد العقاد ذِكرًا لمفاهيم (لومبروزو) في صفات العبقري انطلاقًا من التكوين الجسدي وحاول تطبيق ذلك على أبي بكر وعمر.

٢. حجب الجانب الرباني المُعجز وحجب العقيدة وهو لم يكشف عن دور الإسلام في بناء شخصية الرسول، وتجاهل أن الإسلام هو الذي أعطى النبي ﷺ ذلك الإيمان بالله تبارك وتعالى والإيمان بأحقية الموت في سبيل الله.

٣. أن العقاد قد حارب مذهب التفسير المادي الذي قدّمه ماركس، والشيوعية، وفي نفس الوقت خضع للمذهب النفسي المادي الذي لا يعترف بالآثار المعنوية المترتبة على الإيمان، والعقيدة في بناء الشخصية كما تجاهل جانب الغيبيات، ولم يفهم النبوة فهمًا صحيحًا)[١٠].

مفهوم العبقرية:

لا يمكن الجمع بين العبقري والنبي بأي حال من الأحوال، أو حتى التفكير في ذلك، وقد وقع العقاد في خطأ جسيم، ومنزلَق خطير حين أطلق لفظ العبقرية على رسول الله ﷺ، وهذا الذي يناقض القرآن في كثير من آياته، فالقرآن لا يقبل بأن يطلق على رسول الله أي مسمى عدا الرسالة، فهو ليس أديبا، ولا مفكرا، ولا شاعرا، ولا ذكيا، ولا عبقريا، وإنما هو من سنخٍ مختلف من البشر، ومن الأناسي، فهو يكفيه أن نُطلق عليه رسول الله، وهي صِفة ما بعدها صفة،

---

(١٠) أنور الجندي: ١٤٩ مصدر سابق.

وشخصية تجمع كل الفضائل الإنسانية من جميع أبعادها، ولا يحتاج بعدها لأي صفة أخرى غيرها، لا الذكاء، ولا العبقرية، ولا النبوغ، ولا الموهوب، بل إن هذه الصفات، والمسميات فيها من التوهين لرسول الله ﷺ ومقامه ما فيها، لأن كل لفظة منها لا تخلو من عيوب، ونواقص وسهام التنقيص والسلبية، والعبقري مهما بلغ من سموّ يبقى عرضةً للنقد، والنقص، والمآخذ.

لبيان هذه الحقيقة لابد لنا أن نذكر ما جاء من تعريفات للعبقرية في أهم المراجع، والكتب المختصة التي تناولت هذا المفهوم، ومن ثم سيتضح لنا أنه شتّان أن تجتمع العبقرية مع النبوة، ولا صفة النبوغ والذكاء مع الرسالة.

التعريف:

يقصد بالعبقرية في علم النفس، معنيان مختلفان بعض الشيء ولكنهما متكاملان.

المعنى الأول: يرادف النبوغ ليكون المرء نابغة الذي يتكشف عنه من كان حاصل ذكائه ١٤٠ فما فوق، وقد أكد هذا المعنى عالم النفس الأميركي (لويس تيرمن).

المعنى الثاني: وهو الأكثر شيوعا، يفيد تمتع المرء بقدر من الذكاء عال يساعده على تحقيق منجزات عمليةٍ باهرة في حقلٍ من الحقول، وبهذا المعنى تكون عناصر العبقرية هي الأصالة، والإبداع، والقدرة على التفكير والعمل في مجالات لم تستكشف من قبل. وهذا المفهوم هو الذي أكده العالم البريطاني (السير فرنسيس غولتون). وقد ذهب (غولتون)، الذي كان أول من درس العبقرية دراسةً نظامية، إلى القول بأنّها حصيلة خصالٍ ثلاث هي الذكاء، والحماسة، والقدرة على العمل، وحاول أن يثبت أنها ظاهرة مستمرة في بعض الأسر. والإجماع يكاد ينعقد اليوم على أن العبقرية حصيلة الوراثة والعوامل البيئية مجتمعة. مواهب تمكن صاحبها من التفوق.

سبب التسمية:

كان العرب قديما تزعم أن هناك موطنًا للجن اسمه (عبقر)، وكان العرب إذا تجمعوا في بطون الوديان ومنها وادي عبقر ليؤلفوا شعرًا جاءوا بما لا يفهمه العامةُ من إبداع، ولا يقدرون على صياغة مثله فيظنون أن له قرينًا من الجن يُلهِمه الكلمات، وذلك الإعجاز اللغوي من ذاك الوادي المسمى (عبقر)، فجرت العادة كلما ظهر بينهم شاعر مبدع وصفوه بالعبقري أي من أصحاب الجن عبقر الذي يلهمه الشعر الحذق وجيد الصنعة.

ولا يقتصر ارتباط العبقرية بالجن على العرب وحسب، بل تعداهم إلى الشعوب الغربية الذين أخذوا المعنى عن العرب فقالوا عن العبقريّ (genius) وهذه الكلمة مأخوذة من كلمة (genie) التي تعني جنّيًا أو عفريتًا، ومن هنا نرى أن ال (genius) هو المسكون بالـ(genie) والذي هو الجن.

يقول ابن منظور في لسان العرب: (عبقر موضع بالبادية كثير الجن. ويقال في المثل: كأنهم جنٌّ من عبقر، ثم نَسب العرب إلى ذلك الموضع كلَّ شيءٍ تعجبوا من حذقه أو جودة صنعه وقوته فقالوا: عبقري، وهو واحد وجمع، والأنثى عبقرية، يقال ثياب عبقرية).[(١١)]

وقال ابن الأثير: (عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئًا فائقا غريبا مما يصعب عمله ويدق، أو شيئًا عظيمًا في نفسه نسبوه إليها فقالوا: عبقري، ثم اتسع فيه حتى سمي به السيد والكبير، وفي الحديث: إنّه كان يسجد على عبقري، وهي هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش، حتى قالوا ظلم عبقري، وهذا عبقري قوم، للرجل القوي، ثم خاطبهم الله تعالى بما تعارفوه فقال : (عبقري حسان)[(١٢)].

ويُستخدم اللفظ (عبقري) في العصر الحديث أيضًا للدلالة على الموهبة أو الاستعداد أو الذوق الفطري لشيء ما. فيقال: إن الشخص يسير وفق عبقريته.

---

(١١) مج ٤ دار صادر – بيروت/١٩٩٠ ص ٥٣٤ – ٥٣٦.

(١٢) العبقرية والجنون، يوسف ميخائيل أسعد، ط دار غريب- ٢٠٠١، ص ٥.

وشخص لديه عبقرية للموسيقى، أو لديه عبقرية للشعر أو لديه عبقرية في التخطيط للمكائد، أو لديه عبقرية في اللعب. والعبقرية أيضًا هي القدرة على الإبداع في نوع ما من المناشط أيًا كان. فيقال رجل عبقري وامرأة عبقرية. والعبقرية والمواهب العظيمة نادرةٌ في الغالب(١٣).

المعنى الميتافيزيقي:

يتضح مما سبق أنّ العبقرية ترتبط في أذهان الكثيرين بمعانٍ غامضة لا صلة لها بالواقع العملي من قريب أو من بعيد. وقد حدا بالناس على مر العصور إلى أن ينظروا إلى العبقرية من زاوية غيبية ميتافيزيقية. ذلك التناقض المتفشّي في حياة العباقرة بين عدم انتظامهم وفشلهم في الدراسة وبين ما أبدعوه من عبقرية، أو بين عدم توافقهم وتخلّفهم في إقامة علاقات سوية بينهم وبين الآخرين وبين ما يبزون فيه جميع الناس. ناهيك عما يظهر من سلوكهم في سماتٍ غريبة تجعل الكثيرين يتهمونهم بالجنون، أو بإقامة علاقات بينهم وبين الجنّ، أو بتمرّسهم بالسحر أو بغير ذلك من أسباب لا تتصل بهم مباشرة، بل تتصل بكائنات غريبة عنهم وبعيدة عن نطاقهم الإنساني. ولتناول ما يعتقد فيه الناس من وجود علاقة بين العبقرية وبين الجن واستعانة العبقري بالسحر للوصول إلى مراميه وتحقيق أهدافه. والواقع أن علاقة العبقرية بالسحر علاقة قديمة في تاريخ الحضارات البشرية. فلقد كان العباقرة القدامى يعتمدون بالفعل في عبقريتهم على السحر والاتصال بالقوى الغيبية.

ومن المعتقدات السائدة أيضا، والتي ظلت تعتمل في عقول الناس عبر العصور هو أن العبقري شخص مجنون. إنه ليس كالأشخاص العاديين، إنّه مخلوقٌ غريب عن باقي المخلوقات وعن سائر الأقران. والجنون في أذهان الناس حالة غريبة أو شاذة أيًا كان هذا الشذوذ. والشذوذ أو الجنون قد يكون مرتبطًا في أحيان أخرى وهي حالات نادرة بالتفوق الشديد. ولكن دهشة الناس وربطهم

---

(١٣) المصدر نفسه: ١٤.

بين العبقرية أو الجنون أو الخروج على المألوف لا تكون دائما مرتبطةً بالإحساس بالتهكّم أو الاحتقار أو التفكّه، بل إنّها قد ترتبط بالتعظيم والإكبار.

المعنى السيكولوجي:

حاول علماء النفس في العصر الحديث إماطة اللثام عن المعنى الموضوعي العلمي للعبقرية، وقد استبعدوا المعاني الميتافيزيقية عن نطاق تفسيرهم مكتفين بالوقوف على الأسباب المباشرة التي يمكن كشفها خلف ظاهرة العبقرية. وإنا لنجد اليوم معنيين أساسيين للفظ العبقرية في مجال علم النفس: المعنى الأول وهو المعنى الذي أذاعه لويس ترمان (العقد الأول والثاني من القرن العشرين) والثاني هو المعنى الذي أذاعه فرانسيس جولتون (١٨٢٢-١٩١١).

والمعنى الأول يشير إلى قدرة ذهنية عُليا يمكن الوقوف عليها في ضوء أداء اختبار ذكاء مقنن. أما معدل الذكاء الذي يشير إلى العبقرية فإنّه يتباين من عالم نفس لآخر. ولقد حدد (ترمان) معدل ذكاء قدره ١٤٠ فما فوق للشخص الذي يمكن أن يكون عبقريا وهو مستوى يصل إليه حوالي شخص واحد من كل ٢٥٠ شخصا من مجموع الناس. ولكن هذا لم يقنع بعض العلماء لكي يكون مقياسا حاسما للعبقرية، فاقترح (هولنجورث) بأن يكون المعدل المفروض للعبقرية هو ١٨٠ فما فوق، وهو مستوى لا يكاد يصل إليه أكثر من ستة أشخاص من مليون شخص من مجموع السكان، ولكن هذا بدا لبعض علماء النفس مقياسا متشددا أكثر من اللازم لافتراض وجود العبقرية. وعلى أيّة حال فإنّ مفهوم العبقرية هنا يعني ببساطة القدرة العقلية العليا، ويشير إلى مجرد الافتراض لإمكان تحقيق العبقرية وليس الوصول إلى العبقرية نفسها عمليا.

أما المعنى الذي أذاعه (فرانسيس جولتون)، وهو المعنى الأكثر شيوعا، فإنّه يعني أنَّ العبقرية هي وجود قدرةٍ إبداعية ذات مستوى عالٍ بشكل غير مألوف عما هو ممارس في المنجزات المعتادة اليومية. وبهذا المعنى فإنّ الموهوبين ليسوا مجرد أشخاص حصلوا على ذكاء مرتفع، بل هم أولئك الأشخاص

الذين يحرزون تفوقا في ممارسة ما، أو أكثر، وعلى الرغم من أن التفوّق وحده لا يكون مقياسا سليمًا للعبقرية، فإنّه يعتقد أنه أفضل طريقة ممكنة للوقوف عليها، مع الاعتراف بأنّ مثل ذلك التفوق ليس مجرد تفوقٍ عابرٍ أو أنّه نتيجة لحالة اجتماعية معينة كوراثة عرش بالنسبة للملوك. فالتفوق لكي يكون علامة للعبقرية يجب أن يكون حصول الشخص عليه من خلال إحرازه له شخصيا، وإتيانه بأعمال خارقة للمعتاد(١٤).

حاولنا أن نستعرض في الأسطر السابقة ما أورده العلماء وما ذكرته المصادر حول مفهوم العبقرية في الفلسفة، والاجتماع، وعلم النفس، ووجدنا أنهم يكادون يجمعون على أن العبقرية لا صلة لها من قريب أو بعيد بالنبوة، وإنما هي حالة من النبوغ غير المعتاد، والقائم على الشذوذ وشيء من الجنون المختلط بالذكاء الإنساني والتفوق العقلي، ويبقى العبقري شخصا من ضمن الأشخاص، وإنسانًا من ضمن الأناسي وليس رسولا ولًا نبيًا، وهذا النبوغ الذي يمتلكه ليس نبوة ولا رسالة، فكيف يصح مع هذا كله ومع هذا البيان في مفهوم العبقرية أن نطلق على سيد الأنبياء والرسل بأنّه عبقري من العباقرة؟!

إنَّ هناك بونًا شاسعًا، ومسافة كبيرة، وفوارقَ عظيمة بين العبقرية والنبوة، وهناك خصائصُ وسماتٌ ظاهرة لكل متابع ورائي ولكل مدقق في حياة النبي ﷺ بين الإنسان العبقري وبين النبي المختار من قبل الله والمؤيد من السماء، فقد ظهر في تاريخ البشرية الطويل، والممتد عبر الزمن الكثير من الأنبياء والرسل المبعوثين من قبل الله إلى البشر، كما أنه في المقابل ظهر على الأرض وبين الناس على مختلف بيئاتهم الثقافية والاجتماعية العديد من العباقرة والفلاسفة والممتازين والمتفوقين والبارزين من رجال الإصلاح والفكر والفن وغيرها، ولكن يبقى مع هذا الفارق بين النبي والعبقري كبيرا، وصارخا لكل منصف وناقد حصيف، فالنبي يملك أهم الخاصيات التي تميزه عن البشر، حتى وإن كانوا

---

(١٤) المصدر السابق: (١٥-٢٤).

عباقرة، أو فلاسفة، أو أئمة، أو نوابغ، وأصحاب قدرات خارقة، الفارق يتمثل في أن النبي مؤيد في مسيرته الطويلة بالوحي الذي لا يفارقه ويتابعه ويحرسه، ويمده بالقدرة ورسالة الله وتوجيهه، وعلى هذا النبي يستمد تعاليمه وتحركاته من قبل الروح الأمين عليه السلام، والذي هو رسول مبعوث من قبل الله إلى النبي صلى الله عليه وآله. يقول الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[١٥]، ويقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.[١٦]

بينما العبقري أو الفيلسوف مهما بلغ من العبقرية أو القدرات العقلية أو الإدراكات النفسية يكون مفتقرًا لهذه الميزة، وللمتابعة الدقيقة من قِبَل الوحي، وعينِ السماء، مما يعني العصمة والكمال البشري المطلق، فالعبقري مع ما عنده من عبقرية تذهل الناظر وتشد القريب والبعيد إلا أنّها لا تصل إلى حد العصمة والكمال والبشري، وإنما هو يصدر كل ذلك من خلال اجتهاده الخاص، ومن خلال نظرته الذاتية، ولا دخل للوحي في ذلك، وعلى هذا فهو معرَّضٌ للخطأ والصواب معًا، فنحن نتقبل بكل أريحية أن نسمع أو نرى بأن عبقريًا من العباقرة قد وقع في خطأ فادح، فهو بشر من الناس، بينما لا يمكن أن نتقبل بأي حال من الأحوال أن نسمع أو نرى بأن نبيًا من الأنبياء قد وقع في خطأ حتى لو كان صغيرًا هيِّنا، فهو لا يخطئ أبدًا لأنه معصوم ومحروس بعين الله، هذا من أبسط البديهيات من المفردات العقائدية.

النبي إنسانٌ كامل في كل شيء، فهو كامل في عقله، وكذلك في جسمه وخلقته، حيث نجده مُبرأً من أيّة عاهة أو مرض أو علة خبيثة أو غيرها من النقائص البشرية، (لئن كانت العبقرية امتدادًا في موهبة واحدة أو في جملة مواهب، إنَّ النبوة امتداد في المواهب كلها، واكتمال عقلي وعاطفي وبدني، وعصمة من الدنايا ورسوخ في الفضائل وعراقة في النبل والفضل)[١٧].

(١٥) الأنعام: ٥٠.

(١٦) النجم: ٣-٤.

(١٧) عقيدة المسلم، محمد الغزالي ص ٢١٨.

(كثيرًا ما تكون العظمة امتدادًا في موهبة من مواهب النفس بل كثيرا ما يكون هذا الامتداد على حساب المواهب الإنسانية الأخرى، فإما أصابها بالضمور والشلل، وإما ردَّ النواحي الأخرى من شخصية العظيم إلى مثيلاتها في سائر الناس، بل قد تكون أبعد سقوطًا وأشد ضراوة، ومن هنا لا تعدم في سيرة كلِّ عظيم من أولئك المشهورين نقطة سوداء، وجانبًا غائمًا. كان (نابليون) قائدًا مُحنكًا مسعر حروب، ولكنه كان ساقط الخلق، فاحش العذر. كان (جاك روسو) أديبًا ثائرًا، من أعظم واضعي دساتير الحرية في العالم، ولكنه كان معوج السلوك، هزيل الشرف. وكان (بسمارك) داهية في السياسة لا يبارى، وكان كذلك كذابًا مزورًا.. وهناك من الفلاسفة والشعراء والمفكرين والمخترعين من تفجؤك في أحوالهم وأعمالهم أمور شائنة تستغرب كيف يصدر مثلها عنهم !! وهم - مع هذا - عباقرة، لأن إنتاجهم العلمي والأدبي، وتراثهم الرائع الفريد يسمو بهم فوق مستوى العامة. والذين طهرت سيرهم من هذه الشوائب، وتراهم مبرزين في ناحية، ومعتادين في ناحية أخرى، أو مرضى بما يفسد عليهم أفكارهم. فأبو العلاء الأديب الرقيق المتشائم، لو وُهب معدةً قوية، أو بصرًا حادًا لكان لفلسفته اتجاهٌ آخر غير التبرم بالدنيا، وتسخط الوجود فيها، ومن أعظم زعماء العلماء من تراه أسير عقدةٍ نفسية، أو شذوذٍ جنسي، أو أثرة حادة! ومنهم المصابون بجنون العظمة وتقديس الذات، وكراهية شيء معين أو محبته! ولذلك تتسم حياتهم بالنقائض الموزعة على جانب مستور منهم، وجانب مكشوف للجماهير لا غبار عليه. وقد اعتبرت الحضارة الأوربية هذا التناقض شيئًا عاديًا مألوفًا.

ومن ثم أباح للعظماء أن تكون لهم شخصية مزدوجة، ورأت أن تنتفع الأمم بمواهبهم، وأن تتجاوز لهم سقطاتهم، والأنجليز يعرفون أن (نلسن) مات وهو يختلس عرض غيره، ولكنهم يغضون الطرف، ويعرفون أن (تشرشل) خان عهودًا شخصية واجتماعية، بيد أنّهم يتعامون عنها، فلندع هذا الفريق المعدود من زعماء العالم ولنرتفع، أجل لنرتفع كثيرًا، لنصل إلى مستوى أكرم وأطيب،

ولنتكلم عن صنف آخر .. هم الأنبياء)[١٨].

ونحن نضيف إلى كلام الشيخ الغزالي الآنف أنّه حتى لو سلم العبقري من كل العاهات أو العقد النفسية، والتناقض والخيانة والمكر والموبقات كلها، حتى لو سلم من ذلك كله، وكان شخصًا متفوقًا غاية التفوق على جميع أفراد قومه، ومجموع عصره، فإنّه يبقى مع هذا دون النبي بدرجات عظيمة، ويبقى شخصًا مثل سائر الناس معرضًا للخطأ والنقص والسقوط في أية لحظة، وفي أي موقف عصيب.

أما العقاد فقد أبعد كل ذلك عن نظره وهو يكتب كتابه، وحاول أن ينظر للرسول نظرته لعبقري مذهل استطاع أن يغير التاريخ والعرب بقدراته وعبقريته، وهذا في رأينا أكبر منزلق وقع فيه العقاد في كتابه (عبقرية محمد) حيث حاول أن يرسم شخصية للنبي ﷺ تغاير شخصيته الرسالية التي وردت في القرآن الكريم، وأيدتها آياته المباركة، فالنبي في القرآن ليس ساحرا ولا مفكرا ولا أديبا ولا نابغة من النوابغ ولا عبقريا وإنما رسول الله وكفى، ونحن يجب أن نتعامل مع النبي ﷺ بتعامل القرآن، ونطلق عليه العبارات التي علمنا إياها القرآن لا أن نستخدم عبارات دخيلةً علينا من الفكر الغربي ولا تمتُّ بصلة للفكر الإسلامي. بجانب هذا نجد القرآن يؤكد في كثير من آياته أن النصر والغلبة التي كان عليها النبي ﷺ والمسلمون لم تكن نابعةً من نبوغ النبي ﷺ أو عبقريته القيادية والعسكرية في الدرجة الأولى كما يحاول أن يؤكد هذا العقاد، وإنما هي نتيجة لمساندة السماء، ومراقبة الله للرسول في كل خطواته، ونظره الذي لا يفارقه لحظة، وإن النبي لم يكن هو الذي يقتل ويتغلب وينتصر وإنما كل ذلك يتم عن طريق الإعجاز الإلهي ودعم السماء في كل الغزوات، وأن الله كان ينزل ملائكته لتحارب مع النبي ﷺ .. فأين العبقرية والحنكة العسكرية ومقارنة النبي ﷺ وهو المرسل من الله بنابليون تارة وبغاندي تارة أخرى ؟! إنه تفسير لا يمكن

---

(١٨) المصدر السابق: ١٦.

القبول به، وإن كنا نحسن الظن بالعقاد ولا نسيء الظن به، فمقصده طيب وخير ولكن أداته ليست طيبة ولا النتائج مستقيمة مع الآيات والرؤية الإسلامية الحقة.

سمات شخصية الرسول في كتاب (عبقرية محمد):

(١) النبي المحارب:

يحاول العقاد في كتابه أن يرجع الأسباب الكامنة وراء نجاح النبي عسكريًا ويفسر قدرته الفائقة على هزيمة الأعداء وتحقيق النصر تلو النصر في غزواته، فيذكر بأن السبب في ذلك كله هو الإلهام الذي يأتيه عن طريق الدرس والمران والتجربة، الثاني هو اختياره للوقت المناسب والدقيق في حروبه، والثالث الإصابة في الحساب والإصابة في استشارة أصحابه، وضرَب مثالًا على ذلك بمعركة بدر الكبرى والتي هي التجربة الأولى للنبيِّ ﷺ في إدارة المعارك الكبيرة. ولو تتبع حروبه ﷺ ناقد عسكري من أساطين فن الحرب في العصر الحديث فلا يستطيع أن يقترح من وراء خططه عليه السلام مقترحًا، أو ينبه إلى خطأ، كما رأى أنَّ النبيَّ ﷺ قد سبق نابليون بونابرت بأكثر من أحد عشر قرنًا بأمور كثيرة.

أرأيت كيف يفسر العقاد هذا الانتصار الكاسح الذي حققه النبي على أعدائه، والذي لا يتفق مع أبسط قواعد القتال، وقوانين الحرب، فكيف انتصر في أولى غزواته غزوة بدر بالعدد القليل من أصحابه وبالسلاح الضعيف والفقر في الاستعدادات ؟ هل ذلك كله تحقق لأنه نزل عليه إلهام التجربة؟ وأين التجربة وهي أول حرب يخوضها المسلمون ؟! تراه لا يذكر إمداد السماء للنبي ومشاركة الملائكة في الدفاع عنه على الإطلاق، لأنه لو قال ذلك فسيتحول الرسول من عبقري إلى نبي تعمُّه المعجزة وتؤيده السماء وهذا مالا يريده العقاد.. فصورة النبي هنا وشخصيته قائمة على الذكاء العسكري والخبرة القتالية واختيار الأوقات الحاسمة والاعتماد على المشورة.. هي التي أعطته هذا التقدم والنجاح في حربه، ولا نجد أي ظلال لشخصية محمد النبي والرسول.

نحن لا ننكر أن النبي كان في غزواته محنكًا وقائدا بصيرا وملهما، ولكن ليس هذا هو سبب انتصاراته، بل لأن الله معه يمده بالملائكة وأسباب النصر، وإلا لو اعتمد النبي ﷺ على ذاته فقط لانهزم من أول غزوة، ولأصبح مجرد مقاتل وليس نبيا، وهذه حقيقة يؤكدها القرآن في كثير من آياته. يقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ • ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.(١٩)

(ولقد ذكّر القرآن الكريم المسلمين، ولا يزال يذكّرهم بالانتصار الكبير الذي تحقق للمؤمنين في بدر بفضل ثبات المقاتلين ونصر الله وتأييده الغيبي إذ قال: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ • إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ • وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾.(٢٠)

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾(٢١)، وقال تعالى أيضًا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.(٢٢)

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ

---

(١٩) الأنفال: ١٧-١٨.

(٢٠) الأنفال: ٤٢-٤٤.

(٢١) آل عمران: ١٣.

(٢٢) الأنفال: ٩.

الأَقْدَامَ • إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.[٢٣]

وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ • إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ • بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ • وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ • لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾.[٢٤]

وفي هذه الآيات تصريحات واضحة بما كان عليه المسلمون في معركة بدر من حيث قلة العدة والعدد، وبأبرز الإمدادات الغيبية الإلهية التي ساعدت المسلمين على الانتصار على أعدائهم المشركين، الذين كانوا يفوقونهم في العدة والعدد والسلاح والرجال مع التأكيد على أن ذلك الانتصار العظيم جاء نتيجة ثبات المسلمين واستقامتهم، وصبرهم وإخلاصهم. وأبرز تلك الإمدادات الغيبية هي:

١. مع أن الأعداء كانوا متمركزين في العدوة العليا وهي أعلى الوادي والمسلمين في أسفل الوادي، وكان ذلك من شأنه أن يعزز موقع الكفار لإمكان مراقبة المسلمين من مكان مرتفع كما كان من شأنه أن يجعل هجوم المسلمين على الكفار أمرًا صعبا، ولكن كفة الحرب رجحت مع ذلك لصالح المسلمين.

٢. إنهم لو كانوا على ميعاد مع العدو، ومع العلم التفصيلي بحجم إمكانياته البشرية والقتالية لامتنع عامة المسلمين عن مقابلة المشركين، ولكن شاء الله أن لا يعرف المسلمون شيئًا مفصلًا عن المشركين، مسبقًا، بل يواجه المسلمون الأمر الواقع، فيتحقق ما أراد الله من الانتصار على قريش. وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿لَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾.

---

(٢٣) الأنفال: ١١- ١٢.

(٢٤) آل عمران: ١٢٣- ١٢٧.

٣. تقليل عدد المسلمين في أعين المشركين وتقليل عدد المشركين في أعين المسلمين في أول القتال لكي يستقل الأعداء قوة المسلمين، ولكي لا يهاب المسلمون الأعداء ويستعظموا عددهم، وإليه يشير تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾.

٤. تكبير عدد المسلمين في أعين الكفار في أثناء القتال وإليه يشير تعالى بقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾.

٥. الإمداد بالملائكة المردفين المسومين.

٦. النعاس الذي ألقاه الله على المسلمين فجدّد نشاطهم، وضاعف من قوتهم.

٧. نزول المطر عليهم والذي طهّرهم من الأقذار ومكّنهم من الاغتسال عما أصاب بعضهم من حدث، وثبّت الأرض الرملية تحت أقدامهم، وقد أشار سبحانه إلى كل ذلك في الآية ١١ من سورة الأنفال.

٨. تثبيت قلوب المؤمنين بواسطة الملائكة.

٩. إلقاء الرعب في قلوب الكفار وإلى هذين النوعين من الإمداد الغيبي أشار بقوله: ﴿فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ﴾. كما ويشير القرآن في هذا السياق إلى دور الشيطان في هزيمة الكفار فهو الذي يغري وهو الذي يخذل عند اللقاء يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.(٢٥)

كما أن القرآن يتحدث أيضًا عن حالة المشركين عندما أتوا إلى بدر لمواجهة المسلمين وما كانت تنطوي عليه نفوسهم فيقول: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ من دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.(٢٦)

---

(٢٥) الأنفال: ٤٨.

(٢٦) الأنفال:٤٧.

كما ويعزي هزيمتهم إلى سبب رئيسي وحقيقي وهو مشاقة الله ورسوله إذ يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.(٢٧)

وينبغي الإشارة في ختام هذا العرض التفصيلي – نوعا ما – لوقعة بدر إلى تكتيكات النبي صلى الله عليه وآله الحربية، وإلى أساليبه الحكيمة في تقوية معنويات المسلمين وإلى جانب تنظيم صفوفهم، مما لا يسع المجال لذكره على وجه التفصيل الكامل)(٢٨).

كل هذه الإمدادات والنقاط التي أكدها القرآن لا المؤرخون ولا أرباب السير لا تجد لها ذكرًا لدى العقاد حين يأتي إلى شخصية الرسول المحارب، ويحاول أن يعزو النصر الذي حققه النبي صلى الله عليه وآله إلى حنكته القتالية وقدراته العسكرية، وإلى تدبيراته أثناء القتال وقبله وبعده، وإلى اختياراته الدقيقة للأماكن والأشخاص والأوقات، وإلى حسن استشارته لأصحابه، مما لا نجد له ذكرا في القرآن، بل القرآن يؤكد أنه لولا الله، ولولا النصر الإلهي وما تبعه من خطوات متتالية في تلك المعركة لما انتصر النبي صلى الله عليه وآله ومعه المسلمون على أعدائهم. ولما أجداه ذكاؤه العسكري ولا قدراته القتالية كما يحلو للعقاد أن يصور النبي عليه. ونحن نتفق مع الشيخ جعفر السبحاني في قوله الأخير، حيث يؤكد أن النبي كان يتبع خطوات احترازية، وعنده شيء من القدرات العسكرية والذكاء القتالي، ولكنه لا يكفي أن يكون مفسرًا للنصر الساحق على الأعداء، كما يحاول العقاد أن يثبته، مشكلة العقاد أنه يأتي ولديه فكرة مسبقة وجاهزة في ذهنه وعلى أساسها يفسر الأحداث والنصوص، الفكرة هي أننا نريد أن نتعامل مع شخصية محمد صلى الله عليه وآله بعيدًا وبمعزل عن النبوة والرسالة وإمدادات السماء، وبعيدًا عن الوحي والمعجزة، ونحن في كل ذلك سنقع على شخصية مبهرة وعظيمة ومقاتلة وله تنقاد كل النفوس الحيّة. بما فيها نفوس أهل الغرب واللا دينيين. وهذه

(٢٧) الأنفال:١٣.

(٢٨) سيرة سيد المرسلين، جعفر السبحاني، ج٢ ص (٩٦- ١٠٠).

الفكرة هي التي أوقعته في إشكالات لا حصر لها في كتابه (عبقرية محمد).

(٢) النبي السياسي:

يحاول العقاد أن يثبت في الكتاب وتحديدًا في فصل (عبقرية محمد السياسية) أن نجاح النبي ﷺ في صلح الحديبية، وانتهاجه المنهج السلمي مع عدوه المشرك في ذلك الصلح ما هو إلا لون من ألوان الذكاء الذي يملكه النبي في شخصيته، وما هو إلا نتاج عبقريته الفذة لا نتاج تسديد السماء، ومتابعة الله للرسول وأمر الله له بكل خطواته. وقد تجلّت حكمة رسول الله ﷺ وسياسته الرشيدة في نظر العقاد في قضايا كثيرة كان أهمها وأجمعها: صلح الحديبية مع قريش حيث بحث جوانب كثيرة من المقدمات من دعوته ﷺ للنّاس للحجِّ آنذاك وهو من أهم الشعائر التي يحترمها المسلمون ويحترمها العرب وأهالي مكّة إذ أنَّ أهالي مكّة لا يستطيعون أن يمنعوه ﷺ، مع أصحابه من تأدية فريضة الحجِّ حيث تسقط شرعيتهم حينئذ في سدانة الكعبة والمحافظة عليها وعلى الحجيج وتهيئة أسباب الراحة لهم. وعندما أرادت قريش منعهم من تأدية الحجّ ثار عليها بعض حلفائها كالأحابيش لأنَّه جاء إلى مكّة حاجًا ولم يأتها غازيًا ما اضطرَّ قُريش وأجبرها بعد مفاوضات كثيرة لعقد صلح الحديبية والذي كان من ثماره: تهيئة الأسباب من بعده لتوجه النبيّ ﷺ لمراسلة الملوك والقبائل ودعوتهم للإسلام ودخول كثير من وجوه قريش بالإسلام كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وغيرهما من الأعيان ودخول بعض القبائل العربيَّة بالإسلام. كما أنَّ نقض قريش لبعض شروط الصلح كان آذانًا بفتح مكّة بعد أن فاجأهم الرسول ﷺ بالفتح على حين غِرَّة منهم حقنًا لدمائهم وصونًا لأعراضهم بعد أن عفا عنهم وقال لهم ﷺ قوله المشهور: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وقد فهم بعض المعارضين لصلح الحديبية من الصحابة مقدار حكمة رسول الله ﷺ في ذلك وآمنوا بالبشارة بالفتح الذي جاء في سورة الفتح. كما أنَّ الأستاذ العقّاد يرى أنَّ سياسة رسول الله ﷺ السلمية مع قريش وفتحه لمكّة بعد سنتين من صلح الحديبية وحقنه للدماء في هذا الصلح وفي فتح مكّة، هو ما سار عليه أصحاب السياسة السليمة في العالم وعلى رأسهم المصلح الروسي الكبير ليو تولستوي،

ومحرر الهند المهاتما غاندي وغيرهما من أصحاب السياسة السلميَّة في عصرنا.

النبي صلى الله عليه وآله وافق على بنود الصلح بوحي من الله لا تلقاء عبقريته السياسية ونبوغه العسكري مقارنة بغاندي أو تولستوي أو نابليون!!، دليل ذلك: أن أصحابه في جملتهم تباطئوا عن الامتثال أملا في التراجع أو في شيء يحدث يدخلون به إلى البيت، وكأنها حالةُ تمردٍ وعصيانٍ، ولو كان الرسول صلى الله عليه وآله يسير بشيء من تلقاء نفسه، لو كان يحسبها بعقله وبعبقريته السياسية لقدّم تلك الحجج العقلية التي بموجبها أمضى الصلح على ما هو عليه من شروط تبدو جائرة، ولكنه لم يزد أن قال إنه رسول الله ولن يضيعه.

كان النبي صلى الله عليه وآله يسير بالوحي في كل شأنه، في يوم الحديبية وفي غير يوم الحديبية، فكان الوحي هاديًا، وكان الوحي مراقبًا لما يصدر منه، وفي التنزيل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[29]، وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[30]، وقوله: ﴿إِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[31]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[32]، وقوله: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾[33].

ويسرد العقاد أحداثَ الحديبية ولا يرى فيها أثرَ الوحي مطلقًا، مع أنها كلها كانت من الوحي، حُبِسَت القصواء بحابس الفيل، وكانت المعاهدة، وكان

(٢٩) النجم:٤.

(٣٠) الأحقاف:٩.

(٣١) الأعراف:٢٠٣.

(٣٢) يونس: ١٥.

(٣٣) الأنعام:٥٠.

(الامتناع) عن امتثال الأمر من بعض الصحابة والذي ينذر بالتمرد في ظاهره، ولم يقدم النبي صلى الله عليه وآله تفسيرًا غير قوله (إني رسول الله ولن يضيعني)، ولو كان عنده تفسير لقدّمَهُ. بل كان وحيًا يسمع له ويطيع وإن لم يفهم مآلات الأمور.

(٣) فراسة النبي صلى الله عليه وآله:

يشير العقاد في كتابه إلى سمة من سمات شخصية النبي صلى الله عليه وآله والمتعلقة بالقوة القتالية، والمهارة في الحرب ومن ثم تحقيق النصر تلو النصر في غزواته الكثيرة، وهي فراسته قبل المعركة والتي تقوم على الاستطلاع والترصد وبعث العيون، ونعود ونقول بأن العقاد يصور كل ذلك بصورة السمات الشخصية للرسول والمنفصلة عن السماء وعن نظر الله.. يقول العقاد: (وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر، لأنهما يذكران قريشا ولا يذكران أبا سفيان، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التي ينحرونها كل يوم، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذي يحتاج إليه. وكان صلوات الله عليه إنما يعول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجه ودروبه، ويعقد ما يسمى اليوم (مجلس الحرب) قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع)[٢٤].

تأمل إلى قوله (علم بفطنته الصادقة) فهو يرجع ذلك العلم إلى فراسته وعلمه الباطن وقدراته النفسية الكبيرة، بجانب ما يقوم به من مشاورات مع أصحابه أصحاب الخبرة والمهارة ومن هنا يتحقق له النصر والغلبة والقوة العسكرية المبهرة والمشهودة والتي هي حديث الناس. نحن لا ننكر أن النبي يحمل من المؤهلات والقدرات والمواهب الكثير، وفيه من النبوغ والذكاء والأدب ما يفتقر له أعظم العظماء، ولكن هذا لا يكفيه لأن يحقق ما حققه في وقت قياسي

---

(٢٤) عبقرية العقاد: ٣٥.

لولا عناية الله ونظره ولولا الإعجاز الرباني، فهي خليط من القدرات الذاتية والرعاية الربانية. وفي هذا يعلق الشيخ محمد الغزالي بقوله : (إن الله سبحانه وتعالى يختار لهذا المنصب أهله!! ومن ظن أنَّ العصمة تمنع المحنة والابتلاء، أو أن الرسل الكرام ليسوا أكثر من حملة وحي، وظيفتهم التبليغ المجرد، كأن أحدهم مكبر صوت تنفخ من ورائه الملائكة، فليست له مواهب، ولا استعداد خاص، ولا امتيازات رفيعة. من ظنَّ ذلك فقد ضل في فهم المرسلين، وجهل ما حباهم الله به من خلالٍ تجعل أعظم فلاسفة الأرض لا يصل إلى مصاف أقدامهم! إنَّ الكتّاب الذين ألفوا في سيرة النبي ﷺ ووصفوه بالعبقرية يمكننا أن نقبل منهم هذا الوصف بحذر وقدر. نقبله إذا كان القصد منه كشف النقاب عن معالم العظمة الشخصية، وإلقاء ضوء على البطولة الأدبية لأولئك المصطفَين الأخيار. **ونقبله إذا كان القصد منه الاعتراف بمبدأ الوحي الذي يصل المادة بما وراء المادة، وهذا هو أساس النبوة الأول**، ونرفضه إذا كان وصفًا لعظمة إنسانية معتادة تسلك صاحبها مع غيره من رجال التاريخ البارزين. ذلك موقف المسلم من جمهرة المؤلفين والمؤرخين ممن كتبوا في حياة النبي الأمين ﷺ)[٣٥] الغزالي يشدد على مسألة الوحي، وأن وصف العبقرية أو النبوغ إذا كان منفصلًا عن الوحي والسماء فالمسلم لا يمكن أن يقبل به بأي حال من الأحوال، فالوحي هو أساس النبوة الأول. هذا المعنى لا نشم له رائحة ولو من بعيد في كتاب العقاد حين يأتي إلى رسم سمات النبي ﷺ المختلفة، لا في السياسة ولا الحرب ولا السمات الشخصية، فكل ما تحقق للنبي يعود الفضل فيه إلى مؤهلاته الشخصية العالية وسماته المتفردة.

(وبعد أن قدَّم الأستاذ العقاد ستَّ حقائق أمام بحثه قال: لقد كان مُحمَّد ﷺ قائدًا ذا بصيرة يعلم من فنون الحرب بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدروس والمرانة، ويصيب في اختيار وقته وتسيير جيشه، وترسيم خططه إصابة التوفيق، وإصابة الحساب، وإصابة الاستشارة، وقد يكون الأخذُ بالمشورة الصالحة آيةً

(٣٥) عقيدة المسلم: ٢٢٤.

من آيات حُسن القيادة التي تستفيد من شجاعة الشجاع، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام وضرب مثالاً على ذلك بمعركة بدر الكبرى والتي هي التجربة الأولى للنبيِّ ﷺ في إدارة المعارك الكبيرة. ولو تتبع حروبه ﷺ ناقد عسكري من أساطين فن الحرب في العصر الحديث فلا يستطيع أن يقترح من وراء خططه عليه السلام مقترحًا، أو يبنه إلى خطأ. كما رأى أنَّ النبيِّ ﷺ قد سبق نابليون بونابرت بأكثر من إحدى عشر قرنًا بأمور كثيرة منها:

القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع... وإنَّما كانت عنايته الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين مع قادته بالفوز والانتصار. وعنده أن يستفيد بخطته ثلاثة أمور.. أن يختار الموقع الملائم له، وأن يختار الفرصة المناسبة، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده. وكان النبيِّ ﷺ سابقًا إلى تلك الخطط في جميع تفصيلاتها. وكان نابليون يقول: (إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة على واحد)، وهذا ما رأيناه في غزوة الخندق التي أحاطه بها قريش والقبائل العربية بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم)[٣٦].

(٤) الفصاحة والوسامة والثقة والإيمان:

عندما يأتي العقاد ليفسر انتشار الدعوة وسرَّ نجاح النبي ﷺ وذيوعَ الإسلام بشكلٍ مُذهل في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية والعالم أجمع فإنّه يرجع كل ذلك إلى صفات النبي الذاتية، لا غير!! وليس كلها وإنما أربعًا منها فقط، وهي الفصاحة والوسامة والثقة والإيمان بالدعوة.. فقد تجمعت فيه صفة الفصاحة والوسامة والثقة والإيمان بالدعوة كما جاء في فصل (عبقرية الداعي). فهو أعرب العرب من حيث النطق وفصاحة الكلام، ويقول ﷺ عن نفسه: (أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن أبي بكر). فله من اللسان العربي

---

(٣٦) الشيخ يوسف عمرو، المصدر: مجلة الوحدة الإسلامية، النت.

أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هي فصاحة الكلام.
وكان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشة (رضي الله عنها) حيث قالت: «ما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) [ﷺ] يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّنٍ فصل، يحفظه من جلس إليه». واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها، فهو صاحب كلام سليم في نطق سليم.. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقًّا (جوامع الكلم) ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.

أما الصفة الثانية التي أعانت النبي ﷺ على دعوته فهي الوسامة والثقة، فقد كانت له مع الفصاحة صباحةٌ ودماثة تحببانه إلى كل من رآه، وتجمعان إليه قلوب من عاشره، وهي صفةٌ لَم يختلف فيها صديقٌ ولا عدوّ، ولم يُنقلْ عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفَة مثل ما بلغه محمدٌ بين الضعفاء والأقوياء على السواء. وكان جامعًا للمحبة والثقة كأفضل ما تُجمعان، وكان مشهورًا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه. وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه.

أما الصفة الثالثة فهي صفة الإيمان بالدعوة الموكلة إليه، ولاحظ أنه لا يشير إلى صفة الإيمان وعمقه وقوة صفاته الروحانية وشدة العبادة، وإنما يقصد ويشير إلى إيمان النبي ﷺ بدعوته وأنها دعوة حق.. فيقول مكملًا حديثه: ومن المحقق أنَّ هذه الموافقات على كثرتها، وهذه الشمائل على ندرتها، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج إليها الداعي أشد من احتياجه إلى الفصاحة والصباحة.. وهي إيمانه بدعوته وغيرته على نجاحها. فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمات، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الإيمان بصواب ما يدعو إليه والغيرة عليه(٣٧).

---

(٣٧) ص (١٨- ٢٠) بتصرف.

أرأيت كيف أن العقاد طوال هذا الفصل لا يشير من قريب أو بعيد إلى السماء، ولا رعاية الله، ولا إلى المعجز ولا إلى جبريل، وحتى هذه الصفات لا يشير إلى أنها كانت هبة من السماء أمدّه الله بها لتعينه على نجاح الدعوة الرسالية الخاتمة والعالمية. وإنما هي مجرد صفات ذاتية يحملها محمد وقد كانت وراء نجاح دعوته، ولا ندري كيف تصبح الفصاحة شرطًا؟ ونحن وجدنا كثيرا من العظماء والذين غيروا التاريخ لا يملكون تلك الفصاحة والبلاغة المذهلة، ولا ندري كيف تصبح الوسامة وجمال الوجه والخلق سرًا كبيرًا وراء نجاح الإسلام ونجاح النبي ﷺ في دعوته وهناك من الدعاة والمصلحين والناجحين في رسالاتهم لا حظ لهم من الجمال وجذب الناظر؟! وقد استدرك العقاد خطأه حين قال : (فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمات، ولم ينجح قط داعٍ كبير يعوزه الإيمان بصواب ما يدعو إليه والغيرة عليه).

إذن تبقى صفة الإيمان هي الأساس في نجاح النبي ﷺ في دعوته، ولكن أي إيمان يقصده العقاد؟ إنه لا يقصد الإيمان بمعنى عمق العقيدة واليقين المطلق بالله، وأعلى درجات التقوى والثبات على العبادة، وإنما يقصد العقاد بالإيمان هنا إيمان النبي ﷺ بأنه يبلغ عن رسالة حقة وصادقة. هي اللب في الأمر كله والتي على دعامتها نجح النبي ﷺ وصنع ما صنع!!. فلو كان هذا العبقري يؤمن بحرارة أن دعوته حقة وهي ليست كذلك، فهل سينجح في نشر دعوته ورسالته بين الناس؟!

ولم يكتف العقاد بهذه الخصال وإنما في الفصل نفسه وتحت عنوان ثانوي أسماه (نجاح الدعوة) أشار بكل صراحة إلى أن نجاح النبي ﷺ في دعوته يكفيه صفات النبي الذاتية وسماته الخلقية ولا يحتاج إلى معجزة أو معاجز ينكرها العقل، حتى القرآن لم يشر إليه لا من قريب ولا من بعيد، فنجاح الدعوة جاء لأن الظروف البيئية تهيأت لها والحوادث كلها في انتظار المنقذ المصلح الذي يقوم على يديه التغيير الجذري.. هذا كل ما في الأمر فقط لا غير!!

يقول العقاد في الفصل نفسه: (إنما نجحَت دعوة الإسلام لأنّها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته.. **فلا حاجة إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علّة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي أوضح شيء فهما لمن أحب أن يفهم، وهي أقوم شيء سبيلًا لمن استقام..**)[٣٨].

يفهم من هذا أنَّ في رأي العقاد نجاح الدعوة الإسلامية، ونجاح محمد ليس في حاجة إلى معجزة ولا إلى قرآن ولا إلى وحي، وإنما هي دعوة واضحة وسلسة وتنفذ إلى قلب كل بصير وواع. لا ذكر في كلامه للوحي ولا للمعجزة ولا للسماء البتة، وإنما الأمر كله قائم علًى العبقرية، وعلى عبقرية النبي الذاتية وصفاته الخلقية والشخصية، بعيدًا عن كل العوامل المتصلة بالسماء.

يعلق الشيخ محمد جواد مغنية (١٩٠٤ -١٩٧٩) حول هذه الفكرة بقوله: (لقد كانت دعوة رسول الله ﷺ غريبة لدى العرب، تفوق عقولهم وتصورهم حتى أنهم لم يجدوا لها تفسيرًا إلا السحر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٣٩]، وعلى الرغم من هذا وغير هذا يكابر أعداء الإسلام وخصومه ويصرون على أن محمدًا يرتبط في رسالته بحياة قومه أيما ارتباط على حد تعبير المستشرق الإنجليزي (جب)... أبدًا... لا عامل من بيئة، ولا سبب من ذات، ولا شيء على الإطلاق إلا الوحي من السماء.

وتسأل: أن الأشخاص الذين يقاسون بظروفهم هم العاديون، أو العباقرة غير محمد صاحب الشخصية المبدعة الخلاّقة التي تعطي البيئة ولا تأخذ منها، وتتأثر به، ولا يتأثر بها؟

ونجيب:

أولًا: أجل، إن شخصية رسول الله لا تدانيها أية شخصية عبقرية، ولكن العبقرية – مهما سمت – فإنّها لا تأتي ولن تأتي بالمعجزات وخوارق العادات...

(٣٨) ص ٢٥.

(٣٩) سبأ:٤٣.

فالعبقري الذي لم يدرس فن الطب – مثلًا – يستحيل أن يؤلف كتابًا فيه صحيحًا وسليما في جميع أقواله ونظرياته بخاصة إذا كان فيه كشوف جديدة. ولو افترض أن جاءنا بكتاب مثل هذا لجزمنا في الحال ومن غير تردد بأن وراءه عالمًا قديرًا في فن الطب هو الذي وضع هذا الكتاب، وأعطاه للعبقري، أو العبقري سرقه منه.

وهذه هي الحال بالنسبة لمحمد ﷺ، فلقد جاء بالقرآن، وفيه أشياء وأشياء لا يمكن أن تكون إلا من خالق الكائنات، كالأخبار بالمغيبات وعجائب الأرض والسموات، وخلق الإنسان وغيره من الحيوانات والحشرات، وفيه النظام الكامل الشامل لشتّى ميادين الحياة... إلى غيرها من الحقائق الكونية والإنسانية التي يعجز محمد والعلم في عصره عن معرفة القليل منها... إذن، فلا بدّ أن تكون تنزيلًا من لدن حكيم خبير على قلب الرسول الأمين: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[٤٠]

ثانيًا: أن للعبقري المبدع علاماتٍ تدل عليه، وللثائر المصلح صفات تميزه عن غيره، والنبي يشارك العبقري والمصلح، في كل فضيلة، ما في ذلك ريب، ولكنه يمتاز بصفات لا يشاركه فيها أحد، أن العبقري أو المصلح يستوحي آراءه ومبادئه من الأرض، لا من السماء، يستوحيها من عقله وبيئته، والنبي يتلقى الوحي من السماء، من الله جلّت عظمته، والوحي المعصوم، والعقل يخطئ ويصيب، والبيئة شهوات وأهواء.

وأيضًا العبقري يبدع في شيء دون شيء ولا يبدع في كل شيء، والمصلح يهدف إلى ناحية واحدة أو أكثر من حياة فئة أو أمة في بقعة من الأرض، ولا يهدف إلى إصلاح أهل الأرض جميعًا في كل شيء وفي كل زمان ومكان. أما محمد رسول الحق والعدل إلى الإنسانية جمعاء لينقذها من الجهالة والضلالة، ويحملها على

---

(٤٠) الشورى:٥٢.

نهج الهداية والنجاة.. وأين العبقري والمصلح من هذا أو شبه هذا؟!

وبعد، فإن محمدًا لا يُقال: هو عبقري خلاّق، ولا مصلح ثائر، ولا عظيم خالد.. كلا، وألف كلا، فما أكثر العباقرة والمصلحين والثائرين! إن محمدًا رحمة مهداة من إله السماء لأهل الأرض أجمعين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٤١]. ورحمة الله سبحانه فوق العبقرية والعباقرة، والإصلاح والمصلحين، وفوق العظمة والعظماء الخالدين، بل فوق الناس مجتمعين والسموات والأرضين، لأنها تتسع لكل شيء ولا يتسع لها شيء إلا قلب محمد ومن سار على طريقته وعمل بمبادئه وسنته).[٤٢]

٥. الإنسان المجرد والعبقري:

الفكرة الجوهرية التي تلح على العقاد في هذا الكتاب، والتي تأخذ منه كل مأخذ ويحاول أن يثبتها في قلب القارئ هي أن النبي ﷺ لا يحتاج لمعجزة في دعوته، بل ليس له من معاجز، حتى القرآن لم يأت له العقاد على ذكر، لأن المعجزة ينكرها العقل، والنبي بحد ذاته يقبله أي عاقل، فهو إنسان كامل، ومجرد من كل شيء عدا مواهبه وخصاله العظيمة، وصفاته المبهرة التي تجذب أي متلقٍ وأي مرافق وأي سامع بها، وتجعله ينجح في دعوته سريعًا لا محالة.. وهذا خط فكري معروف نبت في مصر واتسع مداه عند كثير من الكتاب أصحاب المدرسة العقلية، ومن بينهم العقاد ومحمد حسين هيكل وطه حسين وفريد وجدي وغيرهم من أرباب الفكر المعاصر الذين كتبوا في سيرة الرسول ﷺ بشكل خاص وفي الفكر الإسلامي بشكل عام، وهي فكرة جد خطيرة، ومنافية للقرآن وللسنة والتاريخ الإسلامي، فالنبي ﷺ شخصيته وحدها بما فيها من سمو لا تكفي لنجاح الدعوة، وكماله البشري لا يعينه على هذا النصر المؤزر وهذا الانتشار المدوي للإسلام، لاشك أن وراء ذلك كله معجزة إلهية، بل معاجز

---

(٤١) الأنبياء:١٠٧.

(٤٢) نفحات محمدية: ٤٣.

كثيرة، وهذا ما يؤكده الشيخ مغنية، مناقشًا الرأي الذي يقول بأن النبي ﷺ ليس له من معجزة إلا القرآن، ولا أدري كيف سيكون موقف الشيخ ممن يقول بأن النبي ﷺ ليس له من معجزة على الإطلاق؟!! وأظن بأن الشيخ في كلامه اللاحق يعرّض بالعقاد في فكرته تلك، فهو من أشد وأدق المتابعين لفكر العقاد وأدبه وكتاباته على اختلاف توجهاتها وألوانها المتعددة، وهو يتفق معه في شيء ويختلف معه في الكثير وفي لب الفكرة وأساسها.

يقول الشيخ مغنية مفندًا هذا الرأي الخطير: (يرى البعض أنه لا معجزة لمحمد ﷺ إلا القرآن، أما نحن فنؤمن بأن معجزاته لا يبلغها الإحصاء، ذلك بأن على الحكيم أن يخاطب كل قوم بلغتهم، وبما تستسيغه عقولهم كي تتم الحجة عليهم، وإلا كانت الحجة لهم عليه، ولا تتم الحجة بحال، ويستحيل أن تتم إلا إذا كانت صحيحة في نفسها، وواضحة في بيانها وأسلوبها كنور الشمس بحيث لا تدع منفذًا لأية شبهة في ذهن المخاطب.. وإلا فإن (الحدود تدرأ بالشبهات). وبحيث يُعد المنكِرُ مكابرًا ومتعنتًا في نظر العقلاء جميعًا. وأشرنا إلى ذلك في بعض ما تقدم.

وعلى هذا ينبغي أن تتنوع المعجزة وتختلف باختلاف الموارد والأشخاص، كما استدعت حكمته سبحانه أن يباهل نبيه الكريم نصارى نجران كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤٣] هذا إذا كان طالب المعجزة يبتغيها بصدق، وإخلاص، أما الكاذب المتعنت الذي لا يجدي معه شيء فيقتصر معه على القرآن، لأن إعجازه عامٌّ لا يختص بعصر دون عصر، ولا بفئة دون فئة، أو بفرد دون فرد.

والذي يدلنا على أن معجزات الرسول الأعظم ﷺ متعددة ومتنوعة أن رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد بما جاءت به الأخبار من تكلم

---

(٤٣) آل عمران: ٦١.

الحصى، وسعي الشجرة إليه، ونبع الماء من بين أصابعه.. إلى غير ذلك من المعجزات التي أنهاها بعضهم إلى أربعة آلاف وأربعمئة وأربعين معجزة، كما في البحار وكان الناس يتقبلون هذا آنذاك. أما اليوم حيث يتطلع العالم إلى حياة أفضل فإنا نستدل على نبوة محمد ﷺ فيما نستدل: بأنه خاطب العقل وحارب الجهل، وساوى بين الناس، ووقف مع المستضعفين، وقاوم الطغاة المترفين، وأخرج بشريعته وتعاليمه العالم من ظلمات التوحش والهمجية إلى نور الحضارة والمدنية، وبفضله نزع رعاةُ الإبل التيجان عن رؤوس الجبابرة، وألقوا بها تحت أقدامهم. وقد تستدعي الحكمة أن لا تعرض المعجزة على الشخص إطلاقًا، كما لو اكتفى بمجرد شعوره وإحساسه)[٤٤].

إذن من الواضح أن العقاد قد أوقع نفسه في مأزق حين ألحّ على تلك الفكرة التي أراد من خلالها أن يوصل عظمة النبي ﷺ للمسلم ولغير المسلم، مما جعله يقع في أخطاء تتنافى مع أبسط بديهيات الفكر الديني للإسلام، والعقيدة القرآنية، بل إننا نجد النبي ﷺ يرجع حتى أدبه وخلقه إلى الله ورعايته وليس إلى ذاته المجردة عن السماء، وذلك حين يقول: (أدّبني ربي وأحسن تأديبي). فالمواهب والقدرات كلها ربانية أتته من السماء عن طريق الوحي ورعاية الله.

في المقابل نجد العقاد في الكتاب يؤكد وبكل ثقة بأن قضية ناقته المشهورة حين دخول المدينة إنما كان من تدبيره ﷺ وعبقريته الإدارية، وذلك حين يضعها في فصل (عبقرية محمد الإدارية) فعندما استقبل الأنصار النبي ﷺ في المدينة وأخذوا يتنافسون على ضيافته ونزوله بين ظهرانيهم فترك لناقته زمامها تسير، ويفسح النَّاس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك، وهذا طبعًا خلاف الرأي الذي عليه كل العلماء والمحققين ورجال التاريخ، فإن النبي ﷺ لم تكن تلك فكرته، وإنما أكد وبكل وضوح أن الله كان وراء حركة الناقة وهو الذي يسيرها ويختار لها المكان المناسب حين تنازع الصحابة عليها..

---

(٤٤) نفحات محمدية: ٣٤.

أرأيت كيف يتصرف العقاد في شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسماته!؟ كل ذلك من أجل أن يثبت بأن لدى النبي صلى الله عليه وآله عبقرية فائقة في الإدارة لا تدانيها عبقرية، حتى أبسط الحوادث وأشهرها لا يثبت الوحي من ورائها.. يقول : (وصنع ذلك يوم هاجر من مكة إلى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله، وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة، فترك لناقته تسير ويفسح الناس لها طريقها **حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك**)[٤٥].

تأمل إلى قوله: (بركت حيث طاب لها أن تبرك) حيث يصور الناقة بأنها تسير بإرادتها وليس كما جاء في الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله للسيد جعفر مرتضى العاملي، حيث ورد التالي مؤكدًا البعد الغيبي والإلهي لموقف الناقة كله: (وفي يوم الجمعة ركب صلى الله عليه وآله راحلته، وتوجه إلى المدينة، وعلي عليه السلام معه لا يفارقه يمشي بمشيه، ولا يمر ببطن من بطون الأنصار إلا قاموا إليه يسألونه أن ينزل عليهم، فيقول: **خلوا سبيل الناقة، فإنها مأمورة**. فانطلقت به، ورسول الله صلى الله عليه وآله واضع لها زمامها، حتى انتهت إلى موضع مسجد النبي صلى الله عليه وآله، فوقفت هناك، وبركت، ووضعت جرانها على الأرض، وذلك بالقرب من باب أبي أيوب الأنصاري، أفقر رجل بالمدينة. فأدخل أبو أيوب – أو أمه – الرحل إلى منزلهم، ونزل صلى الله عليه وآله عنده، وعلي عليه السلام معه، حتى بنى مسجده ومنازله)[٤٦].

أما الشيخ جعفر السبحاني فيكتب في كتابه (سيرة سيد المرسلين) مفصلًا تلك الحادثة بقوله: (وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وقرب نزوله المدينة فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا يمرّ بحيّ من أحياء الأنصار إلا وثبوا في وجهه وأخذوا بزمام ناقته وأصروّا عليه بأن ينزل عليهم هذا ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **خلوا سبيلها فإنها مأمورة**.

---

(٤٥) ص:٦٦.

(٤٦) ج٤ : ٢٣٥.

وأخيرًا لما انتهت ناقته - وكان ﷺ قد أرخى زمامها – إلى باب المسجد الذي هو اليوم، ولم يكن مسجدًا وإنما كان أرضًا واسعة ليتيمين من الخزرج يقال لهما: سهل وسهيل وكانا في حجر أسعد بن زرارة فبركت الناقة على باب (أبي أيوب) خالد بن زيد الأنصاري الذي كان على مقربة من تلك الأرض) [٤٧].

من الواضح أن العقاد لا يريد أن يقرَّ بما جاء في التاريخ الإسلامي، وما جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ من أن الناقة لا دخل للنبي فيها، ولا علاقة بالعبقرية والذكاء النبوي بحركتها واختيارها هذا المكان دون غيره لرسول الله، وإنما هي رعاية السماء، واختيار الله، والإعجاز الإلهي ونظر الله التي كانت تراقب الناقة وتحركها.

هذا شاهد أما الشاهد الآخر الذي يدلل على أن العقاد يفسر كل مجريات الأحداث النبوية بالعبقرية التي عند رسول الله، ولا يرجع أي شيء للوحي على الإطلاق هو تفسيره للتوجيهات النبوية والمتعلقة بالطب والصحة العامة، وسبقه للطب الحديث، فالعقاد يفسر هذا كله بالإلهام النافذ والسديد في تدبير المصالح العامة، والذي يملكه النبي العبقري، أو هو دليل صارخ على ذكائه المفرط وحاسته التي لا تخطئ وعبقريته الفذة. يقول: (هذا الإلهام النافذ السديد في تدبير المصالح العامة، وعلاج شؤون الجماعات، هو الذي أوحى إلى الرسول الأمي قبل كشف الجراثيم، وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضي في مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد، حيث قال: (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها) [٤٨]

(٦) شمائل عامة:

الكتاب لا يخلو من وقفات يقفها العقاد حين يرسم بقلمه شيئًا من شمائل النبي ﷺ، ونحن نظلم الرجل حين نجرده عن الإبداع في كتابه، ونوسمه

---

(٤٧) ج١ : ٥٧٠.

(٤٨) ص: ٦٥.

بصفة الخبث، لا وإنما هي سقطة منه والنية حسنة، أقول ذلك وأقرره من خلال معايشة طويلة مع كتب العقاد وفكره وكتاباته الغزيرة والمتنوعة في الفكر الإسلامي والإنساني والأدبي. ومن خلال كتابه القيم نقع على وقفات كثيرة مع سمات شخصية الرسول المبدعة والنابهة والتي حملت الكمال البشري كله، والمواهب العظيمة، الخَلقية والخُلقية، وكل ما يبحث عنه الإنسان من قيم وفضائل وخصائص جبّارة تشد الرائي شدًا إليه، وتبهر كلَّ ذي لبٍ وقلب يقِظ. وسوف ننقل سمات النبي ﷺ العامة نصًا من العقاد وبقلمه من خلال صفحات متعددة.

فمن خصائص عظمة رسول الله ﷺ أنّه كان شجاعًا وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة، فيحجمون عن القتال لأنّهم ليسوا بأهل قتال. (مُحمَّد [ﷺ] كان في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب، وكان عليّ بن أبي طالب فارس الفرسان يقول: «وكنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله [ﷺ]، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو». ولولا ثباته [ﷺ] في وقعة حنين، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين للحقت الهزيمة على المسلمين.

كان بارًا وعطوفًا بالخدمة، فكان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه أي البعير التي يستقى عليه الماء. كان [ﷺ] يكره أن تُقبَّل يداه مخافة أن تجري العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع. وكان يحمل طباعًا أربعة لا غنى لكل داع عنها وهي: طبيعة العبادة، وطبيعة التفكير، وطبيعة التعبير الجميل، وطبيعة العمل والحركة.

كان [ﷺ] مثلًا نادرًا لجمال الرجولة العربية، كان كشأنه في جميع شمائله مستوفيًا للصفة من جميع نواحيها. فرب رجل وسيم وغير محبوب، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب، وربَّ رجلٍ وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء، أما محمد [ﷺ] فقد

استوفى شمائل الوسامة والمحبة والعطف على الناس. فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه، وكان نعم المسمى بالمختار.

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلًا أزهر اللون، عظيم الهامة، مفاض الجبين، سبط الشعر، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب. أدعج العينين في كحل، أقنى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين، أسيل الخد، ضليع الفم غزير اللحية، جميل الجيد، عريض الصدر، واسع ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن[٤٩] الكفين والقدمين، لا بالمشذب ولا بالقصير، مربوعًا أو أطول من المربوع، معتدل الخلق متماسكًا لا بالبدين ولا بالنحيل.. وإذا أقبل يتحرك نظر إليه الناظر فرأى رجلًا يصفه الأقدمون بأنه (حي القلب) ويصفه المحدثون (بالحركة والحيوية..).

يمشي فكأنما يتحدر من جبل وينحط من صبب، ويرفع قدمه فيرفعها تقلعًا كأنما ينشط بجملة جسمه، ويلتفت فيلتفت كله، ويشير فيشير بكفه كلها، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى راحة اليسرى، ويفتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه، وربما حرّك رأسه وعضّ شفته في أثناء كلامه. وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء: أشد حياء من العذراء، نضاح المحيا إذا كره شيئًا عرف ذلك في وجهه وإذا رضي تطلقت أساريره وتبين رضاه.

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء في هذه البنية الجميلة، فكان [ﷺ] يصرع الرجل القوي، ويركب الفرس عاريًا فيروضه على السير، ويداعب من يحب بالمسابقة في العدوِ. وقد تجلت أريحيته في علاقته بكل إنسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه. فرقت حاشية جده حتى عطفت على كل أسى، ورحمت كل ضعف، وامتزجت بكل شعور. وكان محمد [ﷺ] يتفكه ويمزح كما كان يستريح إلى الفكاهة والمزاح، وكان دأبه في ذلك كدأبه في جميع مزاياه: يعطي

---

(٤٩) الشثن: شثن الكفين والقدمين أي أنهما تميلان إلى الغلظ والقصر، وقيل هو الذي أنامله غلظ بلا قصر، ويحمد ذلك في الرجال لأنه أشدّ لقبضهم، ويذم في النساء.

كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها، أو يعطي الفكاهة حقها ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة. وإذا مزح فإنما يعطي الرضى والبشاشة حقهما ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة. فكان مزاحه آية من آيات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الإنسانية، ولم يكن بالنقيض الذي يستغرب من نبي كريم. قال لعمته صفية: لا تدخل الجنة عجوز! .. فبكت، فقال لها وهو يضحك: الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء • فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا • عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(٥٠)، ففهمت ما أراد وثابت إلى الرضى والرجاء.

وكان أحرص إنسان على جبر القلوب وتطييب الخواطر وتوخي المؤاساة واجتناب الإساءة، يتفقد أصحابه كبارًا وصغارًا ويسأل عنهم، ويتحدث إلى ذوي الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم أنَّ أحدًا أكرم عليه منه، ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وإن طال. وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذي يرسلها. ومن سنته التي اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة من دعاه ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير. يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه. وربما خفّف صلاته إذا جاءه أحد وهو يصلي ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية. يتقي الغضب جهده ويعالجه إذا أحسه بعلاج من الروح، فيقبل على الصلاة والتسبيح، أو بعلاج من الجسد، فيجلس إذا كان قائمًا ويضطجع إذا كان جالسًا، ويأبى الحركة التي ينزع إليها وهو غضبان.

وكان في آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب في كل زمان. فلم يُرَ قط مادًا رجليه بين أصحابه، وتعوَّد كلما زار أحدًا ألا يقوم حتى يستأذنه، ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في إناء، وإذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه، وربما نهض بالليل فيشوص(٥١) فاه بالسواك، ولا يزال يستاك ويوصي بالاستياك

---

(٥٠) الواقعة:٣٥ – ٣٧.

(٥١) شاص: دلك فمه بالسواك.

بعد الطعام والتيقظ من النوم، وكان يتطيب ويتحرى النظافة.

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة في الأنظار وسماحة في القلوب.. فالسماحة هي الكلمة الواحدة التي تجمع هذه الخصال من أطرافها، والسماحة هي الصفة التي ترقت في محمد إلى ذروة الكمال.

فمحمد الرجل في المقام الأول بين الرجال: في المقام الأول بخلقته، وفي المقام الأول ببنيته، وفي المقام الأول بعلمه، وفي المقام الأول بالقياس إلى المشبهين له في دعوته[٥٢].

(٥٢) الصفحات: (١٣٤- ١٥١) . بتصرف.

المصادر:

١. عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، مكتبة نهضة مصر، ط:١٩٩٦م.
٢. ترتيب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محسن بيدارفر، ط: انتشارات بيدار.
٣. مفاهيم القرآن، جعفر السبحاني، ط:٤ /١٤١٣هـ .ق، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
٤. سيرة سيد المرسلين، جعفر السبحاني، ط:١٩٩٣/٢م، دار الأضواء.
٥. الصحيح من سيرة النبي الأعظم، جعفر مرتضى العاملي، ط: ٢/ ٢٠٠٧م، دار الحديث للطباعة والنشر.
٦. قراءة إسلامية لتاريخنا الحديث، أنور الجندي، دار الاعتصام، د.ت
٧. منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية، علي خالد السدّاني، ط:١/ ١٩٨٩م، المكتبة العصرية.
٨. عباس العقاد بين اليمين واليسار، رجاء النقاش، ط:١٩٩٦/١، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.
٩. قمم وأفكار إسلامية، سامح كريم، ط:١٩٩٩/٢م، الدار المصرية اللبنانية.
١٠. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط:٥/ ١٤٢٢هـ، مكتبة الرشد — الرياض.
١١. نفحات محمدية، محمد جواد مغنية، ط:٢٠٠٦/١م، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.
١٢. أقباس من السيرة العطرة، أنور الجندي، ط:١/ ١٩٨٨م، دار ابن زيدون - بيروت، مكتبة السنة- القاهرة.
١٣. عقيدة المسلم، محمد الغزالي، ط: ١٩٨٨م، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع.
١٤. الرسول في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، ط:١٩٨٦/٢م، دار المنارة - جدة.
١٥. العبقرية والجنون، يوسف ميخائيل أسعد، ط: ٢٠٠١م، دار غريب - القاهرة.
١٦. للعبقرية أسرارها، كريم مرزة الأسدي، ط: ١/ ١٩٩٦م، دار فجر العروبة - دمشق.

المؤلفات :

١. محمد جواد مغنية .. سيرته وعطاؤه/ ١٩٩٧م.
٢. متناقضات القرآن.. رد على مزاعم المستشرقين/١٩٩٩م.
٣. قتل الشعراء/٢٠٠٣م.
٤. مشروع الإسكافي في ربع قرن / ٢٠٠٥م.
٥. شاعر وقصيدة.. شرح لامية الدمستاني في رثاء الحسين عليه السلام / ٢٠٠٧م.
٦. سرقات علمية وأدبية معاصرة / ٢٠١٠م.
٧. محمد جواد مغنية.. معاركه ومساجلاته العلمية / ٢٠١١م.
٨. مجموعة من الكتب المخطوطة.
٩. مجموعة من البحوث والمقالات في بعض الدوريات والمواقع الإلكترونية.

للتواصل مع المؤلف :
alii.moh@hotmail.com